

المركز القومي للترجمة



المشروع القومي للترجمة

رامون ماريادل بايى إنكلان حديقة موحشة

ترجمة وتقديم

محمد إبراهيم مبروك

1688



سلسلة
الإبداع
القصصى



حديقة موحشة..

(قصص)

المركز القومي للترجمة

إشراف: جابر عصفور

سلسلة الإبداع القصصى

المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 1688

- حديقة موحشة

- رامون ماريا دل بايى إنكلان

- محمد إبراهيم مبروك

- الطبعة الأولى 2010

هذه ترجمة:

JARDÍN UMBRÍO

Por: Ramón del valle - Inclán

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة.
شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس:
٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524-2735426 Fax: 27354554

حديقة موحشة..

(قصص قديسين، ونفوس معذبة، شياطين، ولصوص)

تأليف: رامون ماريا دل بياي إنكلان

ترجمة وتعليق: محمد إبراهيم مبروك



2010

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

إنكلان، رامون ماريا دل بايى.
حديقة موحشة.. (قصص قديسينى، ونفوس معذبة، شياطين،
ولصوص)/ تأليف: رامون ماريا دل بايى إنكلان، ترجمة وتقديم:
محمد إبراهيم مبروك

ط ١ - القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٠

٢٤٨ ص، ٢٠ سم

١- القصص الإسبانية

(أ) مبروك، محمد إبراهيم (مترجم ومقدم)

٨٢٣

(ب) العنوان

رقم الإيداع: ٢٠١٠ / ١٣٤٢٥

الترقيم الدولى: 978-977-704-139-3

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب
الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى
اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

7	مقدمة المترجم
33	خوان كينتو
39	عبادة الملوك
45	الخوف
52	حلم تراجيدى
61	بياتريث
88	زعيم
95	قداس من أجل سان إليكتوس
102	الملك المقنع
112	أختى أنطونيا
146	بشكل غامض
153	فى منتصف الليل
161	أبو جدى
172	روساريتو
208	حلم كوميدى

219	 ميلون دى لا أرنويا
227	 مثال
235	 ليلة عيد الميلاد
242	 صلاة

مقدمة المترجم

رامون مارييا دل بايى - إنكلان

٢٨ أكتوبر ١٨٦٦م - ٥ يناير ١٩٣٦م

لو تخيلنا أن عروق الذهب ليست سوى نور شمس
مختزن تحت سطح الأرض، هذا الذى تقاس به الثروات فى
بنوك العالم وأسواق المال، وتتحدى به النساء فى النهار، لتدل
الرجال فى الليل بنوره وصليبه الذهبى إلى مخادعها فى القصة،
فإن أحجار الماس ليست سوى جسر لنور الكون ينفذ عبر كل
ماسة لتجذب عيوننا بالسطوع المبهر لإشعاعاتها التى تفيض من
كل أوجهها، فلا نتوه فى طرق لا تفضى إلى شىء، بل ترقص
بنا لنحلق فى آفاق تتوجها سماوات رحبة تتسع لكل ما ترسمه
عليها خيالاتنا وأحلامنا بكل ألون قوس قزح!

والبناء العظام من المبدعين، وبايى إنكلان ككاتب طليعى
فى المقدمة منهم، ماسات نادرة، ما إن يمسنا نور شعاع واحد
منها حتى نجد أنفسنا وقد طوتنا شبكة تتخطفنا من الأنوار
فنتوهج وقد التف بها كياننا كله فى غمار القلب الحى لهذا
الوجود الزاخر بثرائه، حيث تدافع - لا توقف - أرواح وأجساد

تنهض من أحلامنا وذكرياتنا بطاقات لا تتفد من الحضور والتجدد، فتستحوذ علينا بطاقة جذب لا فكاك منها.

وما إن يتجلى لنا بايى إنكلان حتى ننتبه إلى هذه الصفات فيه: إعصار إبداعات تتفجر بطاقة مبهرة تستعصى على النكوص أو الأسر فى الأشكال الموروثة، فتراه يهب مجتأحاً الطرق المطروقة، والحدود المرسومة السابقة عليه، ليمحوها شاقاً لنفسه طرقاً جديدة مغايرة، سميت فيما بعد باسمه، خالقاً لغته وأساليبه ورؤاه التى حملتها وتحتملها موهبة عظيمة خلقت مكانها ومكانتها السابقة فى الجانب الحى من تاريخ بلاده، وتاريخ العالم، كماسة متعددة الأوجه فى الأدب الإشباني والعالمى فى العصر الحديث.

ولد رامون دل بايى إنكلان فى أسرة من أصل نبيل، إلا أنها لم تكن تتمتع بوضع مالى طيب، فى قرية بيانوبيا أروسا بإقليم جليقية شمال غرب إسبانيا فى ٢٨ أكتوبر ١٨٦٦م، وتوفى فى السبعين من عمره يوم ٥ يناير ١٩٣٦م بمدينة سانتياجو دى كومبو ستيل.

وفى شبابه ألحقه أبوه بجامعة سانتياجو، إلا أنه لم يحتمل وطأة الدراسة الأكاديمية، التى قد تتحول بالنسبة لبعض الأشخاص الموهوبين، والتى ربما لم تكن وفق هواهم، إلى مناخ

خائق وطارء؁ فيضيئون بها. وهذا ما جرى لبايى إنكلان؁ إذ انتهز فرصة وفاة والده؁ فترك الدراسة على الفور؁ وحرر نفسه ليخلق بكل أشواقه فى سماوات المجالات المحببة له هو؁ والمتعددة المنابع للمعرفة؁ وخاصة مجالات الإبداع والفنون؁ كالأءب فى لغته وفى لغات أخرى؁ والمسرح الإسبانى؁ والفنون التشكيلية بالتعرف إلى منجزات فنانيه الكبار فى إسبانيا وإيطاليا؁ وترجم فى هذه الفترة أعمالاً أدبية عن البرتغالية والفرنسية؁ والإيطالية؁ فترجم عن البرتغالية للكاتب البرتغالى الكبير إيسادى كيروز رواية: الرفات؁ وجريمة الأب أمارو وابن العم باسيليوى.

كما ترجم عن الفرنسية رواية: الكونتييسة دى رومانى لألكسندر ديماس؁ وبنات الصديق لوفيشر "بول ألكسيس" وترجم عن الإيطالية: زهرة الغرام لـ ماتيلده سيراو.

وفى عام ١٨٩٢م؁ وبعد خيبة أمله فى علاقة غرامية؁ سافر إلى المكسيك؁ فكان ذلك بمثابة هروب من هذا الإخفاق إلى بلد ذى حضارة عريقة؁ وبه جالية إسبانية كبيرة. وهناك استقل بالكتابة للصحافة الإقليمية؁ ثم انتقل إلى العاصمة المكسيكية واتخذ لنفسه اسمه الأءبى "بايى إنكلان"؁ وخلال هذه الرحلة تعرف إلى المنجزات الأدبية لتيار الحداثـة وأعمال لبعض الكتاب المكسيكيين؁ وأمضى أيضاً بعض الوقت فى كوبا ثم عاد فى عام ١٨٩٣م إلى جاليثيا؁ وانشغل بمتابعة كتابات الكتاب الفرنسيين

من الشباب، وفي أول عام ١٨٩٥م نشر أول كتاب له وهو يُسمى "نسائيات"، وبعده انتقل في عام ١٨٩٦م إلى مدريد ليستقر بها.

كانت سنوات كارثية، إلا أنها كانت غنية بنوابغ الأدب الذين تعرف إليهم، وعاشهم من خلال حياته البوهيمية وانخراطه في نقاشات فكرية وأدبية في المنتديات الثقافية، وسط ظروف معيشية قاسية، التقى خلالها بعدد من صفوة الكتاب من هذه الفترة:

بيننا بنثي، والأخوين باروخا، وأثورين، وتحول إلى شخصية لها احترامها، واشتهر بطرائفه التي انتشرت في الأوساط الثقافية بمدريد.

وفي يوليو ١٨٨٩م اشتبك بايي إنكلان في أحد الأيام مع صديقه الكاتب الصحفي مانويل بوينو في نقاش حاد، احتدم حتى تشابكا بالعصى، فأصاب طرف عصا مانويل هذا كتف بايي إنكلان فجرحه جرحاً بالغاً أصيب على إثره بخرغرينا مما انتهى به إلى بتر الذراع الأيسر.

وما إن وقعت هزيمة الأسطول الإسباني في حرب إسبانيا ضد الولايات المتحدة الأمريكية بمياه بحر الكاريبي وبحر الفلبين سنة ١٨٩٨م وفقدت إسبانيا في هذه الحرب آخر

مستعمراتها في كوبا وبويرتوريكو والفلبين حتى تصدى لأثر هذه الهزيمة جيل ٩٨ العظيم الذي كان على رأسه: رامون دل بايي إنكلان، وأثورين، وميميل دي أونامونو، ريمو باروخا، وأنطونيو ماتشادو.

ولقد تميزت شخصية بايي إنكلان بسمات مركبة، فهو جليقي حالم، مولع بالحكايات والخرافات الجليقية، وملاحم الأبطال، والأفكار المثالية في المرحلة الأولى من حياته، والثورية في المرحلة الثانية، وارث تقاليد النبالة، ومناضل ضد الحكم الملكي، مناصر للقضايا العادلة، وحقوق الشعب الإسباني، ناقد دوماً كل أشكال الفساد والزيغ، وعدو لكل أشكال السوقية، والانتهازية.

وقد وصفه الشاعر روين داريو في إحدى سونيئاته بهذا الوصف:

هذا العظيم دون رامون، بلحيته، لحية التيس

وابتسامته هي زهرة شخصيته

يبدو كإله قديم، متكبر، وأشم

وياله من مسلّ في تمثاله البارد!

ويصفه الكاتب الإسباني العظيم جوميث دي لاسرنا:

إن أجمل قناع يسير على قدمين هو هذا الرجل الذي يعبر
شارع القلعة!

كما وصفه الدكتور الإسباني بريمو دي ريبيرا: إنه
كاتب فاضل، لكنه مواطن غريب الأطوار!

وكان كثير من معاصريه يرونه: يعيش حياته بشكل
مسرحي حتى يمارسها من خلف قناع، ويحكي الشاعر أنطونيو
ماتشادو عن صديق له قال عن بايى إنكلان:

هذا الرجل قادر على أن يحقق كل المآثر التي تنسب إليه،
ولو أنه لم يكن قائدًا على جيش الأرض الحارة، فذلك يرجع إلى
خطأ المكسيكيين، إذ إنه هو بالذات الذي كان سيخلصها، ليس
بالسيف، لكن بالقلم. إن بايى إنكلان سوف يكون قديس أدابنا.

ويصفه الدكتور محمود على مكي في تقديمه للترجمة
العربية المصرية لرواية "بانديراس الطاغية" (ترجمة د. ثريا
شلبى، المشروع القومي للترجمة) فيقول: كان بايى إنكلان،
ومعه ميغيل دي أوتامونو من أبرز رجال جيل ٩٨، وهو من
أكثر شخصيات الأدب الإسباني الحديث طرافة، وأصالة، وإثارة
للاهتمام، وأول مظهر من مظاهر الغرابة فيه شكله وهيئته،
بلحيته الكثة الطويلة التي كانت تفتش صدره كله، وتضاف إلى
ذلك غرابة أطواره وبوهيميته، وغرامه بكل ما يخرج عن

المألوف. وكان مولعًا دائمًا بترديد: "إنه على الرغم من انتمائه إلى جيل ٩٨ ، فإنه مختلف عن رفاقه، متميز عنهم".

وتأكيدًا لصدق ما قاله بايى إنكلان عن نفسه، يكفي أن نؤكد أن كاتبنا واصل تقدمه، على العكس من معظم زملائه، وهو الذى بدأ كواحد من المحافظين على التقاليد ينتهى بأن يصبح ثوريًا، والذى يبدو مؤكدًا، هو أن بايى إنكلان يتحرك دائمًا مدفوعًا بتأثره وانفعاله عن صدق، متجاوزًا لدرجة التناقض. حدود أيديولوجيته والتزامه بالسياسات الواقعية والاجتماعية لعصره، ولقد قاده ذلك، ليس فقط إلى إثارة صراعات شخصية، بل أيضًا إلى أن يسلك بشكل يضرب فيه عرض الحائط بمواضيع النفاق الاجتماعى تحت مسمى اللياقة.

وفى عام ١٨٩٩م تعرف إلى الشاعر روبين داريو رائد حركة الحداثة، التي صار بايى إنكلان رائدها فى إسبانيا وتمثلت فى إبداعاته منذ ١٨٩٥-١٩٢٠م، وهى المرحلة الأولى التى ظهرت فيها: نسائيات، وحديقة موحشة، والسوناتات الأربع، وزهرة القداسة وسلسلة الحرب الكرلية، وأعمال أخرى.

ولقد عشق بايى إنكلان المسرح وبدأ بالتمثيل فيه، وظل مرتبطًا به بالكتابة له، وتعرف من خلاله على الممثلة خوسيفينا

بلانكو وتزوجا في عام ١٩٠٧م، وصاحبها في رحلاتها مع عروضها الفنية إلى بلاد عديدة ومختلفة مثل: الأرجنتين، وشيلي، والأوروغواي...

مع بداية العشرينيات، بدأ بايى إنكلان المرحلة الثانية في حياته الأدبية، بدأها بقوة، وكثرت نشاطاته الاجتماعية، خاصة أنه كان يحب الأسفار، ففي ١٩٢١م تلقى دعوة لزيارة المكسيك من رئيس جمهورية المكسيك نفسه، الجنرال ألبارو أوبريجون، ثم زار هافانا خلال رجوعه، ولقد سببت تصريحات بايى إنكلان القيّمة عن صفحة إسبانيا في تاريخ تلك البلاد حنقا لشبه الجزيرة، لكن، وفي حينها، لم يكن هناك شك لدى أى أحد في المدى الذى يمكن أن تصل إليه قدرة الكاتب على النقد والتحريض. لقد كان تمرده في حاجة إلى معالجة جمالية جديدة وهي التى نذرتة للتوصل إلى إيداعه الطليعى في هذه المرحلة، فهو إيداع يفضح به زمنا كهذا. لقد قادته معتقداته فمضى يشهر سلاحه الكاشف، في الوقت الذى ازداد فيه اهتمامه وإدراكه العميق لنضالات الطبقات العاملة، والشعبية، هذا التحول الثورى الجذرى، كما نقول، ترتب عليه استجابة فنية وضحت في كتاباته مكتملة بأسلوب الإسبرينتو.

حدث ذلك عندما ذكر هذا الاسم: الإسبرينتو، مع نشر عمل مسرحى مسلسل لبايى إنكلان، في مجلة إسبانيا (يوليو -

أكتوبر ١٩٢٠م، تحت عنوان: (إسبرينتو، أضواء بوهيمية). وسوف ترى هذه المسرحية النور فيما بعد ككتاب فى ١٩٢٤م بعد إضافة ثلاثة مشاهد جديدة ذات مغزى بالغ الأهمية، وكان للإسبرينتو أهمية بالغة فى جماليات الإبداع عند بايى إنكلان من خلال بيانه فى الفانوس السحري وتضفير ما هو مأساوى مع ما هو مثير للسخرية فى الواقع المعاصر. وأثار بيان بايى إنكلان اهتمامًا واسعًا فى حينها.

ولقد حاول بايى إنكلان توضيح مفهومه للإسبرينتو فى إحدى مقابلاته الصحفية (١٩٢٨م)، مؤكدًا على أنه توجد ثلاث وجهات نظر جمالية إزاء الأشخاص والواقع: وجهة نظر من موقع الراكع، وثانية من موقع الواقف، وثالثة من موقع أعلى.

فالأولى: هى ما يراه الراكع وتخص الأدب الكلاسيكى - التراجيذى والملحمى - والمؤلف فيه يشعر بأنه أدنى من شخصياته التى هى آلهة، أو أبطال، وهوميروس ينسب إلى أبطاله المنزلة التى يجب أن يكون عليها البشر والرجال بشكل ما.

والثانية: هى ما يراه الواقف، يمثلها مسرح شكسبير، لأنه يعتبر أن شخصياته التى هى من لحم ودم، مثله هو نفسه، فحالة الغيرة عند عطيل هى حالة الغيرة نفسها التى يمكن أن يعانىها

المؤلف، وكذلك شكوك هاملت هى نفسها الشكوك التى يمكن أن يعانىها هو نفسه.

والثالثة: هى التى يراها الناظر من أعلى، وتخص الإسبرينتو.

فهو يطل على الشخصيات ويتأملها من أعلى، تفصله عنهم مسافة، فيراهم من زاويته مثيرين للتهكم، غريبى الأطوار، باعثن على السخرية والضحك من أشكالهم الشائعة، وسلوكهم غير المبرر، وأنهم فى منزلة أدنى من خالق هذه الشخصيات. وبالطبع، ليس فى الأدب المعاصر الآن أبطال ملاحم، والآلهة تحولت إلى شخصيات هزلية فى مهزلة شعبية!

ما السر وراء تطور بايى إنكلان من الحداثة إلى الإسبرينتو؟

ما إن نجحت الثورة الروسية فى أكتوبر ١٩١٧م، وأقامت أول دولة اشتراكية فى التاريخ حتى أبدى بايى إنكلان حماسه لها ومناصرتها، وقارب الفكر الماركسى حتى تشبع به، وإزاء هذا التحول فى الرؤية والموقف وجد نفسه مهتمًا ومنشغلًا بقضية العدل الاجتماعى، والانحياز التام لمصالح الطبقة العاملة والطبقات الشعبية، وبهذه الرؤية تحولت أعماله إلى أعمال برزت فيها تقنية الإسبرينتو: وهى وجهة النظر الجمالية التى

تقوم على كشف القناع ، والنضج الساخر للوضع الاجتماعى والسياسى وعلى رأسه السلطة فى إسبانيا فى ظل الحكم الدكتاتورى لبريمودى ريبيرا. وكان بايى إنكلان وإلى جانبه ميغل دى أونامونو واحدًا من أبرز الكتاب المعارضين لهذا النظام، ولم يتوان عن فضحه والتشهير بفساده فى بيانات منشورة تعبر عن سخطه وعدم رضاه، وصل إلى الحد الذى طالب فيه، من أجل إسبانيا، بدكتاتورية مثل دكتاتورية لينين.

وشارك فى الحركة السياسية بتأييده ومساندته للحركة الطلابية بقيادة الاتحاد الثورى الراديكالى لطلاب الجامعة الإشباني، وساند الإضراب الطلابى فى عام ١٩٢٩م، مما ترتب عليه اعتقاله وسجنه فى معتقل موديلو لمدة أسبوعين، ولذلك كله تعرض مسرحه الذى يعكس رؤيته الإسبرينتو لتعسف الرقابة ومنع عروضه.

وفى سنواته الأخيرة لم يُخف بايى إنكلان تعاطفه الواضح والصريح مع الشيوعيين، إذ بادر فى عام ١٩٣٣م إلى عقد أول مؤتمر فى نادى مدريد لاتحاد الكتاب والفنانين الثوريين، وفى العام نفسه اختير رئيسًا فخريًا لجمعية أصدقاء الاتحاد السوفيتى.

كان لذلك التطور الهائل فى فكر بايى إنكلان بالغ الأثر فى بلورة رؤيته الجمالية "الإسبرينتو" التى تجلت فى كل أعماله المسرحية والروائية منذ ١٩٢٠م حتى آخر أيام حياته فى ١٩٣٦م. وكانت أوائل هذه الأعمال بالغة الوضوح فى عمليه الكبيرين: مسرحية: أضواء بوهيمية، وروايته المنفردة والرائدة لأدب الدكتاتور: باتديراس الطاغية (١٩٢٦م) وهى أول رواية تعالج قضية الدكتاتورية فى أمريكا اللاتينية، وتتسحب على أية دكتاتوريات أخرى فى أى مكان من العالم، وقد اقتدى بها، وما من شك أنها قرئت وتم هضمها تمامًا من قِبَل من كتبوا الروايات التى اتخذت مسارها فيما بعد مثل:

السيد الرئيس (١٩٤٦م) للكاتب الجواتيمالى ميخيل أنخل أستورياس.

ميتات كلب (١٩٥٨م) للكاتب الأسبانى فرانسيسكو أيلالا.

نقض الحكم (١٩٧٤م) للكاتب الكوبى أليخو كاربنتيير.

أتا الأعظم (١٩٧٤م) للكاتب الباراجوانى أوجستو روا باسطوس.

خريف البطريق (١٩٧٥م) للكاتب الكولومبى جابرييل جارتيا ماركيث.

حفلة التيس (٢٠٠٠م) للكاتب البيرواني ماريو بارجاس
يوسا.

كيف انتقمت الأقنعة لنفسها بمطاردة أعمال بايى إنكلان
منذ بريمودى ريبيرا حتى آخر أيام فرانكو؟!

الإسبرينتو، فى اللغة الإسبانية، كلمة تعنى شخصاً أو شيئاً
قبيحاً، أو شنيعاً، أو لا معقولاً، أو باعثاً على السخرية. وإطلاق
هذه الصفات على "الإسبرينتو" عند بايى إنكلان هو خطأ فادح،
لأن من يفعلون ذلك يقفون عند حدود المعنى القاموسى للكلمة،
ولا يحاولون التوصل إلى المفهوم. فهى عند بايى إنكلان
"مفهوم" وليست المعنى الحرفى المجرد للكلمة.

لذلك فأنا لا أستطيع تسميته بأدب الشبح؛ لأن الأدب فعل
جمالى، هو معالجة جمالية للواقع بالنسبة للكاتب فى رؤيته
لشخصياته.

إذا فالأجدر بالتسمية، عند بايى إنكلان: أدب الكشف عن
القبح أو الغشاوة، أو الشنيع، نزع القناع عنه، تعريته، فضحه
تحت حكم الأنظمة المستبدة الفاسدة، والعلاقات الاجتماعية
القائمة على الخنوع، والنفاق، والتواطؤ، والكذب، والانتهازية،
والسوقية والزيف فى كل أشكال السلوك العملى، أو الأداء
اللغوى وتسمية الأشياء بعكس ما تعنيه.

إن القول بأن الإسبرينتو يشوه الواقع هو محض افتراء وتوصيف يتضمن اتهامًا في غير محله، بل هو تستر على كون الجريمة والبشاعة هي الكامنة في بنية هذا الواقع وعلاماته المشوهة، وليس مصدرها الكاتب. إنه انحياز غير واع، وربما واعٍ مع تعمد إخفاء الحقيقة، وهي أن الرؤية الصادقة والحقيقية للكاتب، هي الكاشفة وليست الخالقة، إنه نفس منطق البورجوازيين الذين يتهمون ماركس ونظريته بأنهما وراء الصراع الطبقي، مع أن الصراع الطبقي موجود منذ فجر التاريخ، لم يخلقه ماركس، وكل ما فعله هو أن كشف عن وجوده وأوضح قوانينه.

هذا هو المضمون الحقيقي لرؤية بايي إنكلان، الذي يكشف بالدرجة الأولى عن عمق إدراكه للأوضاع الاجتماعية في عصره، ورؤيته النقدية الساخرة لكل أوجه الفساد والتزييف، وهي رؤية وصلت إلى ذروتها عند بايي إنكلان بعد تبنيه للفكر الماركسي، وانحيازه للطبقات المقهورة بالاستغلال والدكتاتورية: العمال والفلاحين، والبورجوازيين الصغار والفوضويين في مواجهة البورجوازيين الكبار وبقايا الإقطاع، والمدعومين من حلفائهم في النظام الرأسمالي العالمي، إنهم النظم الحاكمة الرجعية، والجيش، والسلك الكهنوتي، وهم بمثابة معسكر أعداء ثورات الشعوب.

إذا فالإسبرينتو ليس مجرد حلية جمالية، أو مذهباً جمالياً هبط عليه من السماء فجأة، إنه اكتشاف عبقرى ورؤية لإمكانيات تكنيك يقوم على النقد والفضح والسخرية من كل أشكال الجمود، والتسلط، والتكالب على السلطة والاستئثار بها، وهو - كما سبق أن أشرنا - ابن تحول وتطور فكرى، وتبنٍّ للماركسية، نظرية الثورة، وهذا ما تجنب الإشارة إليه أو ذكره كل الأساتذة الذين قدموا لنا بايى إنكلان فى مقدماتهم لما ترجم له، أو فى فصول دراساتهم هنا فى مصر. والسؤال المنطقي هو: لماذا أخفوا، أو تحاشوا، أو تغافلوا عن الإشارة إلى ما وراء هذا التطور الذى أفضى إلى "الإسبرينتو"؟ وهل كان يمكن لبايى إنكلان أن يقدم لنا هذا الإبداع الذى شق طريقاً جديداً فى الرواية أو المسرح فى العالم لو لم يرتكز هذا التطور الجمالى على هذا التطور الفكرى الجذرى، ولا أقول الانقلاب الفكرى، لأن بايى إنكلان، بطبيعة تكوينه وميله دائماً إلى الفكر المتجاوز وبتمرده وثوريته على ما كان سائداً فى حياته، وفى عصره. كان لا بد أن يلتقى مع الماركسية التى كانت التتويج الفكرى لما ينشره فى محتوى ثورى يتسق مع تكوينه النبيل.

لقد عاش بايى إنكلان وأبدع وخاض معاركه بنبل وبسالة، وعندما حانت منيته، لم يكن سوى إعصار يتجمع ويصفو باعثاً

نوره على هيئة ماسة فريدة تبعث لنا بنورها إلى الآن ساخرة
من قناع الموت الذى يكذبه خلوده الأدبى!

الأعمال الأدبية لرامون مارييا دل بايى إنكلان

الأعمال الروائية:

وجه الإله (١٩٠٠م)

سوناتا الخريف (١٩٠٢م)

سوناتا الصيف (١٩٠٣م)

سوناتا الربيع (١٩٠٤م)

زهرة القداسة (١٩٠٤م)

سوناتا الشتاء (١٩٠٥م)

سلسلة الحرب الكارلية (١٩٠٩م)

مسامرة فى الزمن القديم (١٩٠٩م)

فى ضوء النهار (١٩١٧م)

بانديراس الطاغية (١٩٢٦م)

نهاية ثائر (١٩٢٨م)

سلسلة الحلبة الأسيرية (بلاط العجائب ١٩٢٧م)

يحيا ميدى (١٩٢٨م)

قبضة السيوف: سهرات سبتمبرية (١٩٣٢م - غير كاملة)

الرعد الذهبى (١٩٣٦م - قطعة).

أعمال قصصية:

نسائيات (١٨٨٥م)

أغنية عرس (١٨٩٧م)

بلاط الحب (١٩٠٣م)

حديقة موحشة (١٩٠٣م)

حديقة قصصية (١٩٠٥م)

حكايات شريرة (١٩٠٧م)

بلاط الحب: نخبة من السيدات الشريفات (١٩٠٨م)

صندوق من خشب الصندل (١٩٠٩م)

أعمال مسرحية:

رفات (١٨٩٩م)

كوميديا بربرية (١٩٠٧م)

الماركيز دي برادومين (١٩٠٧م)

قفر الأرواح (١٩٠٨م)

قصة إبريل (١٩١٠م)

رأس التتين (١٩١٠م)

أصوات ملحمة (١٩١١م)

المسحور (١٩١٢م، ١٩١٣م)

الماركيزة - روساليندا (١٩١٢م)

كلمات إلهية (١٩١٩م)

أضواء بوهيمية (١٩٢٠م)

محبوبة الملك (١٩٢٠م)

الملكة الأصلية (١٩٢٠م)

قرون دون فريوليرا (١٩٢٠م)

وردة من ورق (١٩٢٤م)

رأس المعمدان (١٩٢٤م)
حلى المتوفى (١٩٢٦م)
ابنة الكابتن (١٩٢٧م)
عرض لمسرح العرائس للبخيلة، والشبقة، والموت
(١٩٢٧م)

الأعمال الشعرية:

نفحات الأسطورة (١٩٠٧م)
بيبة الكيف (١٩١٩م)
المسافر (١٩٢٠م)
مفاتيح شعرية (١٩٣٠م)

أعمال أخرى:

عسل بستان الورد (١٩١٠م)
المصباح السحري (١٩١٦م)
منتصف الليل (١٩١٦م)
أزهار اللوز (١٩٣٦م)

حديقة موحشة

فانوس مضاء معلق أمام الباب ليضيء للداخلين

الطبعة الأولى من حديقة موحشة التي صدرت في ١٩٠٣م لم تكن تضم كل النصوص التي تضمنتها طبعاتها النهائية التي صدرت في عام ١٩٢٠م، وهي التي بين أيدينا وقدمت هذه الترجمة الكاملة لها، وهي المجموعة التي تضم ثلاث روايات قصيرة هي "بياثريث" و"أختي أنطونيا"، و"روساريتو" ومشهدين دراميين هما "حلم تراجيدي"، "حلم كوميدى"، واثنتي عشرة قصة قصيرة هي خوان كينتو، وعبادة الملوك، والخوف، وزعيم، وقداس من أجل سان إليكتوس، والملك المقنع، وبشكل غامض، وفي منتصف الليل، وأبو جدى، وميلون دى لا أرنويا، ومثال، وليلة عيد الميلاد.

والروايات الثلاث هي بالتأكيد من أفضل ما كتب بياي إنكلان، باختيار الكاتب لها لتضمها الطبعة النهائية، فضلاً عن دافع آخر هو أنها مفعمة بأجواء جليقية تسيطر على باقى القصص.

والشخصيات التي تمثل الأبطال لهذه الروايات الثلاث هن: شابات جميلات من الطبقة العليا، سوف نعرف مع تقدم

السرد أنهن الضحايا البريئات لأعمال سحر، أو الوقوع ضحايا الافتتان بالسحر الشخصى المنطوى على شر بلا حد للرجل، والذى ينتهى إلى حب مأساوى مهلك (كما فى روساريتو)، وأعمال شيطانية تجسدها فى جليقية أخيلة وممارسات العجائز المعتقدات فى أعمال السحر، وشر العين، مثل السحر الذى انتقل عبر تفاحات رينيت، والقطعة السوداء، والتعاويذ كما فى أختى أنطونيا، وبقية قصص المجموعة.

وهذه القصص كلها تجرى وقائعها فى جليقية، فى جو مشبع بالأساطير، إذ يعتقد الناس فيها بالفطرة، فيصدقونها، ويتكتمون على وقائعها، ويحاولون لذلك أن يتقوا شر العين، ويتعلقون فى حياتهم بالتفاؤل والتشاؤم، ويرسخ ذلك فى أرواحهم تحلقهم فى الليالى حالكة الظلمة شديدة البرودة، حول نيران المواقد للتدفئة بينما يسمعون الريح فى الخارج، والتى يتسلل إليهم هزيمها من المداخل، إذ تكثر تعليقاتهم حول السحر، والشياطين، والأرواح المعذبة، ويرددونها، ويزيدون ويعيدون فى تفاصيلها، فى هذا الوادى، وادى ساليناس، وأمام هذا البحر، بحر روسا، فى هذا الجو بأساطيره الغامضة، قضى رامون دل بايى إنكلان طفولته وفتح عينيه على جو يطبق عليه الضباب وتحاصره الأمطار، وأول ما التقطته أذناه، كان حكايات عن أعمال السحر والأرواح الشريرة، وكيف تنتقل بين الناس متخذة

شكل حيوانات، أو أطياف بشر تتناقلها العجائز، ويحكينها كروايات شعبية أو أحداث متخيلة عن وقائع فى أزمنة سحيقة، انتقلت إلى رامون بايى إنكلان فى طفولته كما حكى لنا فى مدخل حديقة موحشة عن المصدر الذى استلهم منه هذه القصص وهى ميكائىلا لأجالانا العجوز الطاعنة فى السن التى كانت عند جدته، وكانت تقضى الساعات وهى تغزل بجوار النافذة وتحكى قصصاً كثيرة عن قديسين ونفوس معذبة، وشياطين، ولصوص. ويقول بايى إنكلان:

والآن أنا أحدى تلك القصص التى كانت تحكيها لى، بينما كانت أصابعها المليئة بالتجاعيد تدير المغزل، تلك الحكايات كانت تفرعنى فى الليل خلال سنوات طفولتى، ولذلك لم يدركها النسيان، ولا تزال من وقت لآخر تلح على ذكراتى، كما لو أن ريحاً صامتة وباردة تمر فوقها، لها نفس الحفيف لأوراق شجر جافة تتساقط، الحفيف الذى لحديقة عتيقة مهجورة، حديقة موحشة!

هذه الحكايات المأخوذة من التراث الشعبى المحكى شفاهة، قدمت لنا - وقد تمت إعادة صياغتها بروح مبدع وفى خلال أسلوبه الذى يمتاز بقدرته الفائقة - نصوصاً أدبية لما فيه كتبت بعناية وطاقة شعرية وخيال متوهج، وعلى الرغم من

صياغاته الماهرة، لم يبعدنا الكاتب عن روح وأجواء تراثه الشعبي الشفاهي، نبعها الأصلي.

ويقول دياث بلاخا: "إن جليقية التي نراها في قصص بايى إنكلان، ليست هي جليقية البحر، بساحلها شديد الانحدار (ساحل الموت)، أو الوديان التي تتساب خلالها الأنهار في رقة، بل جليقية الأراضي الواقعة على مشارف الجبال، والدور الريفية للأعيان وحدائقها، الكنائس المتواضعة المعتمدة الرطبة في هذه الدور، نرى فيها الطواحين، بطنين أصوات المياه الجارية المندفعة في مزاوردها، والكنائس العتيقة ومنازل رؤسائها والطرق الزراعية الغائرة، عزلة الإقليم وتجمده تحت الثلوج في فصل الشتاء وقمه التي تغطيها نباتات الخلنج والسيزال والكتان".

وفي هذه القصص يمكننا أن نرى جماعات من رؤساء الأديرة والقساوسة وخدام الكنائس وهم يمرون أمامنا على التوالي بوجوههم العابسة ونظراتهم المتسلطة المتجبرة مثل حيوانات الجبال البرية المفترسة، كما نرى شابات أنيقات وساذجات، وكونتيسات منتميات إلى سلالات عريقة، وقائمين على أراضي الأوقاف، وكتبة، وخدم، وفلاحين، ورعاة، وشحاذين، وعصابات، ومتأمرين.

شبان عضّهم ذئب مسعور، ونساء تتلبسهن أرواح شريرة،
عجائز يشتغلن بالسحر وقادرات على شفاء المصابين به
والمصابات بأعمالهن.

عرافات، ونساء قليات الشأن يعصبن رعوسهن ويصلين
فى ظل حائط، ويستحضر لنا بايى إنكلان عادات الحياة الجليقية
وطرقها: الفرق الموسيقية الجوالّة، أقنعة الكرنفالات، والأغاني
الشعبية فى أعياد الميلاد، التى تستخدم فيها الصنوج والدفوف،
طقوس السهر على الميت قبل دفنه، العجائز وهُنَّ تشتغلن
بالإبرة طواقى للرأس، وجوارب، أرغفة خبز الذرة، النبيذ
اللاذع، والنبيذ الطازج فى محصول العنب الذى يتم قطفه من
مزارع كرومهم، قصاع اللبن، والبقلوة المقلية فى الزيت بلونها
الأشقر.

فى هذه المرحلة الأولى من إبداع بايى إنكلان الأدبى -
مرحلة الحداثة - ومنها هذه المجموعة القصصية: حديقة
موحشة، كان أبرز ما ميز بايى إنكلان هو لغته التى تضج
بتوهج ألوانها، ورهافة نَحْتِه لها، وغنى موسيقاها، التى قال
عنها صديقه ورفيقه من جيل ٩٨ بيميل دى أوناموتو إنها تقتحم
بايقاع خاص، وتسترسل بسلاسة على شكل موجات، بل ويبدو
نثره أحياناً فى رحابة المحيط.

فضلاً عن أن ما يساعده على ذلك هو تراثه الجليقي الذي تتميز لغته بأنها منغمة، ذات جرس، ولكلماتها عذوبة عند النطق بها.

وإذا كان شاعر نيكاراجوا هو رائد (الحدائث) بين شعراء أمريكا اللاتينية فقد صار بايى إنكلان هو رائد وصاحب (الحدائث) فى إسبانيا، بما يمتلكه من طاقة شعرية هائلة تتبدى فى كل كتاباته، أشعاراً، أم قصصاً أم روايات، أم مسرحيات، وأسلوب متوفز يحلّق به ويتجاوزّه فى سباقه مع ذاته نفسها، نافخاً فى لغته الجليقية من روحه ليحيلها إلى جمرات تضوى، باعثة وهجها، وحرارتها فى الشخصيات، والمشاهد، والحوارات، بإيقاعات موسقة، وأطياف تتطلق وتتحول فى الليالى المقمرة فى واقع تسكنه الأسطورة، والخرافة، وأعمال السحر واتقاء شر العين وما يثيره التشاؤم من مخاوف، والتقاؤل من أحلام.

روح الأسطورة هذه، أو عطر الأسطورة، كما أطلقه بايى إنكلان، عنواناً لأحد دواوينه الشعرية، يغلف عالمه هذا فى مرحلته الأولى البكر من إبداعه بجو الأسطورة، الذى جعل من أعمال بايى إنكلان، بل وحياته وشخصه، أسطورة حياة فى التاريخ الثرى والخصب للأدب الإشباني، والعالمي.

والآن، تعالوا لندخل، ومعنا الفانوس المضاء المعلق
أمام الباب، لندخل به هذه الحديقة الموحشة، لنكتشف، ويا
للغربة، أى شجن، واستعذاب، بل وموجات من ومضات تتألق
وتتناثر من الفرع، منحها لنا هذا الكاتب: الاستثنائي!

محمد إبراهيم مبروك
القاهرة / ١٦ إبريل ٢٠١٠

خوان كينتو

ميكائيل لاجالانا روت حكايات كثيرة عن خوان كينتو، هذا الصعلوك الذى، عندما كانت هي شابة، كان قادراً على أن يهز أرض سالنيس كلها. حكى كيف أنه فى إحدى الليالى، وبفضل الظلام، دخل ليسرق بيت راعى كنيسة سانتا بايادى كريستاميلدى. وكان بيت رئيس دير سانتا بايا مجاوراً للكنيسة، فى العمق من المساحة الخضراء لحوش تحتله المقابر وتغطيه ظلال أشجار الزيتون. وفى هذا الوقت الذى تكلمت عنه ميكائيل، رئيس الدير كان رجلاً عجوزاً مأذوناً له بالخروج من الدير. لاتيلى طيب، ولاهوتى صالح. وكان مشهوراً عنه أنه غنى، وقد رآه وهو يتاجر ويختال راكباً فرسة سمينة، ومعه دائماً أخراج مليئة بالجن. خوان كينتو، لكى يسرقه، تسلق النافذة، التى يتركها عادة، فى أوقات الحر، مفتوحة رئيس الدير المطرود. تسلق الصعلوك وهو يخربش الحائط وعندما صار فى مواجهة الجزء العلوى من النافذة ومنعه سكينة أطبق عليها بين أسنانه، رأى رئيس الدير وقد آوى إلى فراشه وهو يتشاءب. خوان كينتو وثب داخل الصالة صارخاً بوحشية وكان ما يزال ممسكاً بالسكين. طقطقت ألواح الأرضية الخشبية مع تلك السمعة المربعة المرتبطة به وسط تلك الجلبة كلها. واقترب خوان كينتو من السرير، ووجد عيني القسيس العجوز مفتوحتين وهادئتين وكانتا تتطلعان إليه:

— أى فكرة شريرة أتت بك، يا لص!

رفع الصعلوك السكين:

— الفكرة التى أتت بى هى أن تسلمنى النقود التى تخفيها،
يا سيدى رئيس الدير.

الراهب ضحك بمرح:

— أنت خوان كينتو!

— سرعان ما تعرفت علىّ.

كان خوان كينتو طويلًا، قويًا، أنيقًا، نحيلًا. له لحية
نحاسية، وحدقتا عينيه خضراوان كزمردتين، جسورتان،
ومثيرتان. وفى الطرق، بين التجار المحتالين، وتجار الأسواق،
ينجح الصوت العالى والمتحمس بقوة، والمأذون له بالخروج من
الدير كان يعرف مميزات ذلك الصعلوك الذى يحدق فيه الآن،
بالسكين المرفوعة كى تخيفه:

— أحضر النقود بسرعة يا سيد يا رئيس الدير. كيس
النقود أو حياتك!

قال الراهب متعجبًا:

— لكنك جئت فاقد الرشد. كم كأسًا سفحتها أيها الفاجر؟
أعرف سلوكك السيئ. فهنا يأتى كثير من أبناء الأبرشية ليشكوا
آلامهم... لكن، يا رجل، لم يقولوا لى إنهم يعانون من السكر!

صرخ فيه خوان كينتو فجأة بشكل عنيف:
— يا سيدى يا رئيس الدير، صلّ لى أنا الخاطيء!
— صلّ أنت، ما أكثر الخطايا التى ارتكبتها.
— كم من رقاب قطعتها!، وألسنة خرمتها!، وأكباد أكلتها!
استمر رئيس الدير محتفظاً بمرحه وشد إليه المخدة:
— لا تكن بربريّا، يا لص!. إننى أشك فى أنك كثيرًا ما
أكلت اللحم نيئًا.
— لا تلعب معى لعبة الثرثرة، يا سيدى رئيس الدير،
كيس النقود أو حياتك!
— ليس لدى نقود، وإذا كنت أمتلكها فلن تذهب أيضًا
إليك. انصرف واحفر الأرض.
رفع خوان كينتو السكين فوق رأس الراهب المسموح له
بالخروج من الدير:
— سيدى يا رئيس الدير، صلّ لى أنا الخاطيء.
رئيس الدير ختم بأن قطب ما بين حاجبيه:
— لا تخدعنى. إذا كنت سكرانًا، امش ونم، وفى المستقبل
تعلم أنه بالنسبة لى عليك أن تسلك بشكل آخر فيه احترام
لسنوات عمرى ومن أجل كرامة مركزى الكنسى.

ذلك الفاجر الوقح والعنيف بقي صامتًا للحظة، وبعد ذلك همهم بصوت موحش ومغطى بحجاب:

— حضرتك لا تعرف من هو خوان كينتو!

وقبل أن يرد عليه الراهب المأذون له بالخروج من الدير، نظر إليه من أعلى إلى أسفل بغفران عظيم:

— أفضل من يعرفه هو أنت نفسك، مسيحي خاطئ.

ألح الآخر بغیظ عاجز:

— أسد.

— قط!

— النقود!

— ليس لدى نقود.

— وأنا لن أذهب بدونها!

— إذا لن أستقبلك كضيف.

في النافذة وأشعة النهار تتسرب والديكة تؤذن حاسمة انبلاج الفجر.

نظر خوان كينتو حوله، من خلال الصالة الواسعة حيث ينام المقبول في سلك الإكليروس، عثر على الدرج، عطس الراهب:

— جئت برياح غير طيبة.

وبدا يرتدى ملابسه بتأنٍ، وفي الصلاة باللاتينية. ومن وقت لآخر، ولكي يرسم على نفسه علامة الصليب، وهو ينظر إلى اللص الذي يروح ويجيء من جانب إلى الجانب الآخر معتديًا على حرمة البيت. ابتسم الراهب بمكر وسخرية:

— فتش، فتش!، لن تجدني أنا في وضوح النهار، وسوف تجد نفسك بلمسات خفيفة!...

وعندما انتهى من ارتداء ملابسه، خرج إلى الشرفة المشمسة ليرى كيف طلع النهار.

غردت الطيور، وارتعشت الحشائش، وكل شيء عاد يولد من جديد مع فجر اليوم. والراهب صرخ في الصعلوك، والذي يواصل الاعتداء على حرمة البيت بتفتيشه للدرج:

— هات كتاب الصلوات والأدعية، يا لص!

وظهر خوان كينتو بكتاب الصلوات والأدعية وسلمه له بيديه، الراهب المأذون له بالخروج من الدير وبخه توبيخاً مفعماً بالغفران له.

— لكن من الذى أشار عليك بأن تأخذ طريق الشر هذا؟
تحمل واحفر الأرض بحثًا عن رزقك، يا لص!

— أنا لم أخلق لأشتغل بحفر الأرض، فى عروقي دم

سادة!

— إذا اشترِ حبلاً واشنق نفسك، لأنك لكى تسرق تشتغل أيضاً.

بهذه الكلمات نزل الراهب درجات السلم للشرفة المشمسة ودخل إلى الكنيسة ليقيم قداسه. وشبيهاً بكلب سلوقي هرب خوان كينتو واجتاز بعض حقول الذرة، وبعد ذلك مضى إلى الجبال فى الصباح، وفى طراوة النهار حيّاه فلاحون كثيرون. ووقع حادث هذا اليوم نفسه الذى تمر بهوائه الطلق وأريجه. إذ سُرِق وقتل تاجر محتال فى طريق سانتا ماريا دى ميس.

ميكائيل لاجالانا، فى نهاية الحكاية، خفضت من صوتها ورسمت على نفسها علامة الصليب، وتمتعت بفمها الخالى من الأسنان، ذاكرة شجرة نسب خوان كينتو:

— إنه من عائلات محترمة. ابن روميخيوى دى بيالونا وحفيد بورو، الذى كان رفيقاً للسيد المرحوم فى معركة جسر سان بايو.

لنصل "أبانا الذى" من أجل الأموات ومن أجل الأحياء.

عبادة الملوك

تعالوا، تعالوا، أيها الملوك المقدسون

وتطلعوا إلى ملايين الحلى

والطفل الصغير

جميل كحلية تتزين بها النساء

كم هو جميل

أن يولد مثلما تولد غيمة أو شمس

ما إن غربت الشمس حتى ارتفع الحداء من الرعاة حول
النيران الموقدة للاصطلاء، ومنذ غروب الشمس، مسترشدين
بهذا النور الآخر الذى ظهر ساكناً فوق أحد التلال، وسار
الملوك المقدسون. مضى الثلاثة فى الرطوبة المنعشة اللطيفة
للليل يجتازون الصحراء. النجوم تلمع فى السماء، والأحجار
الكريمة فى التيجان الملكية تبرق فوق جباههم. نسمة طرية
تجعل العباءات الموشاة ترفرف: التى لجاسبار من قماش
أرجوانى من كورنتو، والتى لميلشور من قماش أرجوانى من
تيرو: والتى لباتاثار من قماش أرجوانى من منفيس.

عبيد سود، هم من يسرون على أقدامهم تغوص صنادلهم
فى الرمال، يسوقون الجمال بيد موضوعة فى قفاز قرمى من
الجلد، تتموج بسلاسة أقواس الأعنة، وبين حواشى السروج
الحريية تتأرجح أجراس ذهبية صغيرة. كان ملوك المجوس
الثلاثة راكبين جمالهم ويتحركون فى شكل طابور، بالتأثر
المصرى كان فى المقدمة، ولحيته الطويلة تنزل على صدره،
وكانت أحياناً تمرح على كتفيه... وعندما صاروا على أبواب
المدينة بركت الجمال، والملوك الثلاثة نزلوا وخلعوا تيجانهم
وصلوا على الرمل.

وقال بالتأثر:

— ها نحن قد وصلنا إلى تمام رحلتنا!...

وقال ميلشور:

— لنكن من أتباع الذى ولد ملكاً لإسرائيل...

وقال جاسبار:

— العيون تراه، وكل شىء فىنا سيكون طاهراً.

وعندئذ عادوا لركوب جمالهم ودخلوا المدينة من البوابة
الرومانية، ومهتدين بالنجم وصلوا إلى الحظيرة، حيث ولد

الطفل، وهناك، العبيد السود، ومثلما كانوا وثنيين، ولا يدركون شيئاً، نادوا بأصوات فظة:

— افتحوا!... افتحوا الباب لسادتنا!

وعندئذ انحني الملوك الثلاثة فوق مقدمات السروج وتحديثوا إلى عبيدهم، والذي جرى أن الملوك الثلاثة قالوا بصوت خافت:

— راعوا ألا توقظوا الطفل!

وأولئك العبيد، ممثلين خوفاً واحتراماً، بقوا خرساء، والجمال التي بدت ساكنة أمام الباب، طرقت الباب برفق بخفها، وهكذا وفي الوقت نفسه، انفتح ذلك الباب العتيق من خشب الأرز دون أن يحدث صوتاً. وشيخ بصدغ خالٍ من الشعر ولحية بيضاء ظهر على عتبة الباب: فوق الفروة التي تغطي شعره الطويل والناصري يرتعش قوس إكليل ذهبي، قميصه كان أزرق ومزيناً بالنجوم مثل السماء العربية في الليالي الصافية، أما العباءة فكانت حمراء، مثل البحر الأحمر في مصر، والعصا التي يتوكأ عليها كانت من الذهب، مزينة في أعلاها بثلاثة زنابق بيضاء من الفضة. ما إن شاهدوا أنفسهم في حضرتهم حتى انحني الملوك الثلاثة له، وإذا الشيخ يبتسم ابتسامة مفعمة ببراعة طفل وأفسح الطريق أمامهم للدخول قائلاً بفرح وقداسة:

— تفضلوا بالدخول!

وهؤلاء الملوك الثلاثة الذين أتوا من الشرق فوق جمالهم
البيضاء، عادوا ليحنوا جباههم بتيجانهم، وجذبوا عباءاتهم
الأرجوانية وعلبوا أيديهم فوق صدورهم داخلين الحظيرة.
صنادلهم الموشاة بالذهب تحدث حفيفاً فيه تناغم. أما الطفل،
النائم فى المزود فوق قش الشليم الأشقر، فقد ابتسم فى أحلامه.
وبجواره كانت الأم موجودة، وكانت تتأمله راحة على ركبتيها
ضامة راحتيها عليهما: ثوبها بدا مأخوذاً من الغيوم، وأقراطها
من النار، ومثلما فى زرقة بحيرة الناصرة، ترقرت فى العباءة
توهجات ذهبية. ومد ملاك فوق المهد جناحين، من نور،
ورموش الطفل رفرفت كفراشات شقراوات، والملوك الثلاثة
سجدوا من أجله، وبعد ذلك قبلوا قدمى الطفل، ولكى لا يوقظوه،
أبعدوا لحاهم الطويلة والتي كانت ثقيلة ومهيبية مثل الصلوات.
وبعد ذلك قاموا، وعادوا إلى جمالهم وحملوا منها له هداياهم:
ذهب، بخور، مرّ.

وقال جاسبار وهو يقدم إليه الذهب:

— لكى نتبعك جئنا لك من الشرق.

وقال ميلشور وهو يقدم إليه البخور:

— لقد وجدنا المخلص!

وقال بالتأثر وهو يقدم إليه المر:

— طوبى لكم يمكننا أن نسمى بها بين كل المواليد!

وملوك المجوس الثلاثة خلعوا تيجانهم وتركوها فى المزود عند قدمى الطفل. وحينذاك لوحى جباههم الشمس ورياح الصحراء غشيها النور، والأثر الذى تركته الدائرة المزيّنة بالأحجار الكريمة صارت تاجاً أكثر جمالاً من التيجان المصنوعة فى الشرق... وملوك المجوس الثلاثة ردّوا كما لو كان نشيداً:

— إنه هو!... لقد رأينا نجمة!

بعد ذلك قاموا ليذهبوا، لأن شعاع الفجر لاح، وحقول بيت لحم خضراء، ويغمرها الندى، تبتسم فى سلام الصباح فى هذه القرية الصغيرة من بين قراها المتناثرة. والطواحين البعيدة تختفى تحت تعريشات الأبواب، والجبال الزرقاء والثلوج فى القمم. تحت هذه الشمس الحبيبة التى تتير فوق الجبال، يأتى عبر الطرق أناس من القرى، راعٍ سوق غنمه باتجاه المروج التى فى أرض جباليا، نساء تغنين عائدات من عند بئر إبراهيم بجرار ملأى؛ شيخ متعب يعزق الفدان لبقراته، حتى تظل تقضم الحشائش داخل السياج، والدخان الأبيض الذى يبدو خارجاً من بين شجرات التين... العبيد السود يجعلون الجمال تبرك ويركبها

ملوك المجوس الثلاثة خالين من كل خوف استداروا نحو بلادهم، عندما سعدوا بأغنية صغيرة بصوت بعيد لامرأة عجوز، وطفلة، كانتا جالستين على باب طاحونة، كانتا تتقيان الذرة من الشوائب التي بها. وكانت هذه هي الأغنية البعيدة بصوتهما:

سيروا أيها الملوك المقدسون

وتحاشوا الطرق

المهمة بارتكاب الجرائم فيها

والتي أمر بها هيرودس جنوده

الخوف

تلك القشعريرة الطويلة المقلقة التي بدت نذيرًا للموت،
القشعريرة الحقيقية كانت من الخوف، والتي شعرت بها لمرة
واحدة.

كانت بعد عدة سنوات، في ذلك الزمن الجميل زمن
الأوقات التي يتم فيها تخصيص أراضٍ للصرف منها على ولد،
عندما كان الاستعلام يتم عن شخص من طبقة النبلاء ليصبح من
رجال الجيش. كنت قد أكملت الحصول على شرائط برتبة
خريج بمدرسة الفرسان الحربية، وفضلت الدخول في الحرس
الشخصي للملك. لكن أمي أدلت برأيها، وأشارت إلى ما توارثناه
في عائلتنا، لأكون فردًا في فرقة رماة القنابل اليدوية التابعة
للملك. لم أذكر بالتأكيد السنوات التي مرت، لكن في ذلك الحين
كان خط من الزغب قد ظهر في منبت شاربي. واليوم أقترّب
من أن أكون عجوزًا متهاكًا. وقبل دخولي في سلك الخدمة
بالفرقة العسكرية، أرادت أمي أن تمنحني بركتها. والسيدة
الفقيرة عاشت منزوية في عمق إحدى القرى، حيث كانت بيوت
الأشراف التليدة في الريف. وهناك كانت مستسلمة لأحوالها
ومطبعة. وفي الليلة نفسها التي وصلت فيها أرسلت من يبحث

عن رئيس دير برانديسوكى ليأتى ويتلقى اعترافى فى مصلى الكنيسة الصغيرة لدارنا الريفية. أختاى ماريا إيسابل وماريا فرناندا، اللتان كانتا طفلتين، نزلتا لتقطفا وروداً من الحديقة، وأمى ملأت بها زهريات المذبح وبعد ذلك نادتنى بصوت خفيض لتعطينى كتاب الصلوات الخاص بها، وقالت لى إنها ستعمل لى امتحاناً فى أن أتلو الصلوات بضمير حى:

— اذهب إلى المنصة، يا بنى، هناك ستكون تلاوتك أفضل.

المنصة المهيبة الخاصة بالسيد وعلى جانب منها الإنجيل وتتصل بالمكتبة. مصلى الكنيسة الصغيرة كان رطباً، تسوده العتمة، يرن الصوت فيه.

فوق الأيقونات برز الشعار الممنوح بأمر قضائى من الملوك الكاثوليك إلى السير دى برادومين، بدرو أجيار دى تور، المسمى الكبش وأيضاً الشيخ. ذلك الفارس كان مدفوناً على يمين المذبح. وعلى الضريح تمثال يبتهل من أجل محارب. وقنديل مقصورة الكهنة مضاء ليلاً ونهاراً أمام الأيقونات، ونقش محفور مثل حلية صغيرة لملوك: وعناقيد مذهبة من الكرم الإنجيلى تبدو وهى تقدم مليئة بالفاكهة. القديس الحارس كان ذلك التقى ملك المجوس الذى قدم المر إلى الطفل الإله؛ رداؤه من الحرير

المطرز بالذهب الذى يلمع مع بهاء المتعبد لمعجزة شرقية. نور القنديل بين سلاسل من الفضة. كان بى خوف زاد فى خفقان قلبى، من طائر محبوس كما لو أنه يسعى طائراً نحو القديس. وأمى أرادت أن تخرج يداها ما تركته تلك الليلة عند قدمى ملك المجوس، الزهریات الممتلئة بالورود، كما لو كانت تقدمه قرباناً من روحها النقية.

بعد ذلك، مصطحبة أختى، ركعت أمام المذبح. أما أنا فمن عند المنصة، فقط سمعت همهمة صوته، الذى يهذى دليلاً مختصراً للصلوات على مريم؛ لكن عندما أتى الدور على الأطفال فى الرد، سمعت كل الكلمات الطقسية فى الصلاة. العصر أوشك أن ينقضى، والصلوات ترن فى ظلمة سكون المصلى فى الكنيسة الصغيرة، عميقة حزينة، ومهيبة كما لو كانت صدى لآلام المسيح. أما أنا فغفوت على المنصة. وأما الطفلتان فمضتا لتجلسا على درجات سلم المذبح: فساتينهما بيضاء مثل كتان قماش الطقوس الدينية، وفقط تحققت من شبح يصلى تحت قنديل مكان صلاة القساوسة: كانت أمى وبين يديها كتاب مفتوح، وتقرأ ورأسها محنية، وأحيانا تهز الريح الستارة المعلقة على النافذة الكبيرة العالية. وأنا أتطلع من خلالها إلى السماء، والتي كانت بالفعل معتمة ووجه القمر شاحب وفائق الجمال مثل إلهة لها مذبح فى الغابات وفى البحيرات.

أغلقت أمى الكتاب وهى تطلق تنهيدة، وتتادى مرة أخرى على الطفلتين. رأيت مرور الشبحين الأبيضين لهما وعبر مكان صلوات القساوسة لمحتهما بجانب أمى تركعان. نور القنديل يرتعش بوهج واهن فوق اليدين اللتين عادتا تفتحان الكتاب وتسنداه، وفى السكون تلا الصوت بورع وتأن. الطفلتان تتصتان وحلاًً أربطة شعرهما فانسدل فوق البياض الناصع لفستانيهما ونزل على جانبي الوجه، متشابهتان، حزينتان، مسيحيتان. كنت قد غفوت، وفجأة أفرعتى صرختا أختى. نظرت فرأيتهما لائذتين بحضن أمى، تصرخان وقد فزعتا، وأمى تأخذهما من يديهما ويهربن هن الثلاثة. نزلت مسرعاً. ومضيت خلفهما، وبقيت مذعوراً من الرعب فى ضريح المحارب، كانت عظام الهيكل العظمى يتصادم بعضها ببعض. وقف شعري على جبهتى، ومضى الكنيسة الصغيرة بقى فى السكون الهائل وأخذت أسمع بشكل واضح صوت الدحرجة المخيف للجثة من فوق المائدة الحجرية. امتلأت بخوف كما لم أمتلئ به من قبل أبداً. لكننى لم أحب أن تعتقد أمى وأختى أننى جبان، وبقيت بلا حركة فى وسط المقصورة المخصصة للكهنة بالقرب من المذبح، بعينين مفتوحتين على الباب الموارب. نور القنديل تذبذب. وأعلاه اهترت الستارة المعلقة على نافذة كبيرة، والغيوم كانت تعبر فوق وجه القمر، والنجوم كانت تشتعل وتنطفئ مثل

حياتنا. وفجأة، وبعيدًا هناك رن رجع صدى جماعى من كلاب،
وموسيقى من أجراس صغيرة. صوت مهيب كنسى نادى:

— نحن هنا فى حضرة الوجه البهى!، فى حضرة الكابتن!

لقد كان رئيس دير براندويسو الذى حضر لتناول
اعترافى، بعد ذلك سمعت صوت أمى وهى ترتجف وخائفة،
واستقبلت بشكل واضح التسابق المرح للكلاب. الصوت المهيب
والكنسى أخذ يرتفع ببطء مثل نشيد جريجورى.

— الآن نرى ما الذى فعله هو... شيئًا من العالم الآخر لا
يمكن أن يكون، بالتأكيد... نحن هنا فى حضرة الوجه البهى!
فى حضرة الكابتن!...

ورئيس دير براندويسو، متقدمًا كلابه، كلاب صيد
الأرانب البرية، ظهر على باب مصلى الكنيسة الصغيرة:

— ما الذى حدث، يا سيد رامى القنابل اليدوية فى حرس
الملك؟

وأنا أجبته بصوت مخنوق:

— سيدى يا رئيس الدير، لقد سمعت الهيكل العظمى داخل
الضريح وهو يرتج...

شق رئيس الدير طريقه داخل الكنيسة الصغيرة: كان رجلاً ذا كبرياء ورفيع الشأن. وفي سنوات شبابه كان أيضاً رامى قنابل يدوية فى حرس الملك. وصل إلى مكانى، دون أن يلم أطراف أرويته البيضاء واستند بيديه إلى كتفى ليؤكد لى، وهو ينظر إلى بوجه ممتنع وينطق بصوت مهيب:

— ما لن أستطيع أن أقوله أبداً إن رئيس دير براندويسو قد رأى رامى القنابل اليدوية فى حرس الملك وهو يرتجف!

لم يرفع اليد عن كتفى، وبدونا بلا حركة، يتأمل كلانا الآخر دون كلام، وفى ذلك السكون سمعنا دوران جثة المحارب. يد رئيس الدير لم ترتعش، وإلى جوارنا نصبت الكلاب آذانها مع أعناقها وشعرها يقف من الرعب، ومرة أخرى سمعنا دحرجة الجثة من فوق المائدة الحجرية. هزنى رئيس الدير:

— يا سيد يا رامى القنابل اليدوية فى حرس الملك، لا بد من معرفة أهى عفاريت أم أعمال سحر!...

واقترب من الضريح، وأمسك بالحلقتين البرونزيتين المثبتتين بإحدى بلاطات الضريح، تلك التى عليها الكتابة التى على القبر. واقتربت وأنا أرتجف، ونظر لى رئيس الدير دون أن ينبس ببنت شفة. وأنا وضعت يدي فوق يده فى واحدة من

الحلقتين، وخلعت البلاطة، وبيطء وجدنا الحجر، الفجوة، سوداء وباردة، مائلة أمامنا. ورأيت الجثة المصفرة المتخشبة مازالت تتحرك. مد رئيس الدير إحدى ذراعيه داخل الضريح كي يمسك بجمجمة الجثة. بعد ذلك، وبدون كلمة وبدون إشارة سلمها لى. تلقيتها وأنا أرتجف. كنت فى وسط المقصورة المخصصة لصلوات الكهنة، ونور الفانوس يسقط على يدي؛ وعندما حدثت فى العينين هزتي بشكل مرعب، كان بداخلها عش ثعابين تخرج من مكمناها وهى ترسل فحيحًا، بينما جمجمة الجثة تتدحرج بشكل خادع وبخفة على كل درجات المكان المخصص لصلوات الكهنة. نظر لى رئيس الدير بعينى المحارب التى تصعق من تحت قلنسوته كما لو من تحت مقدمة خوذة:

— يا سيد يا رامى القنابل اليدوية فى حرس الملك، ما من غفران... أنا لا أغفر للجبناء!

وبوقار متكلف فظ، خرج دون أن يلم أطراف أرديته بذيلها الطويل. الكلمات التى قالها رئيس الدير براندويسو ظلت ترن لزمى طويل فى مسامعى: ومازالت ترن حتى الآن. وربما بسببها عرفت متأخرًا جدًا أن أبتسم للموت مثلما أبتسم لامرأة!...

حلم تراجيدى

كانوا قد تركوا البيت مفتوحًا، وبدا مهجورًا... الطفل كان نائمًا خارجه، فى سلام العصرية التى على وشك الغروب، تحت تعريشة شجرة العنب، وعلى العتبة كانت جالسة تهز المهد بقدمها امرأة عجوز، بينما كانت أصابعها المجعدة تدير فلكة المغزل. وغزل المرأة العجوز كبة بعد كبة، التيل الأسمر من حقلها. عندها مائة سنة، الشعر مفضض، والعينان فقدتا الرؤية، والذقن دائمة الارتعاش.

الجدة — كم من العمل ينتظرنا فى هذه الدنيا!

عندى سبعة أبناء، وعلى يدى أن تخيّطاً سبعة أكفان... الأبناء أعطيتهم لى أعرف آلام الولادة، وفيما بعد، واحدًا فواحدًا ينتزعهم الموت منى عندما يصبحون قادرين على أن يعينونى على السنين. تلك الأعين الحزينة لم تتعب من البكاء عليهم، كانوا سبعة ملوك، شبابًا، مؤدبين! أراملهم مصيرهن أن يتزوجن، وأمام بابى أرى مرور موكب زيجاتهن الثانية، وأمام بابى أرى بعد ذلك أفراح التعميد... آه! فقط الحلقة من أحفادى أوراق تتساقط مثل أوراق وردة فى مايو... وكانوا كثيرين، حتى إن أصابعى تتعب من الغزل ليلاً ونهارًا من أجل عمل

الأقمطة لهم!... كلهم حملوهم عبر هذا الطريق حيث ترسل
الضفادع نقيقها، ويغرد البلب، كم بكت عيناى! وبقيت عمياء
أرى مرور صناديقهم البيضاء الملائكية، كم بكت عيناى وكم
بها مازال لتبكيه! طوال ثلاث ليالٍ والكلاب تعوى على بسابى.
وأنا منتظرة أن يترك لى الموت هذا الحفيد الصغير، وأيضاً
يأتى من أجله... لقد كان، من بينهم كلهم، الذى أحببته أكثر!...
فعندما دفنوا أباه، لم يكن قد وُلد بعد، وعندما دفنوا أمه لم يكن
قد عُمِد... لذلك كان من بينهم كلهم، الذى أحببته أكثر!... لقد
أرضعته بمئات من أشكال المعاناة. كان عندى نعجة بيضاء
وكانت تقوم برضاعته، لكن الذئب فى الجبل أكلتها... وحفدى
ذبل مثل زهرة! وحفدى يموت ببطء شيئاً فشيئاً مثل النجوم
المسكينة التى لا تستطيع أن تتأمل طلوع الفجر!

وبكت العجوز فاستيقظ الطفل. انحنت العجوز تنتحب فوق
مهد الطفل وببيديها المرتعشتين راحت تتلمس وهى غير متأكدة،
تبحث عن الناحية التى فيها رأسه. وفى النهاية ضمت الطفل إلى
حضنها وضغطت وجهه بثديها، متيس وميت، وبكت وتساقطت
دموعها خيطاً فخيطة من الأعين العمياء ودموع لا تتوقف فى
الأخدود الوقور للتجاعيد، غنت لتخفف عن نفسها. غنت الجدة
أغنية قديمة قصيرة. وعند سماعها توقفت فى الطريق ثلاث
فتيات عذراوات، وكن عائدات من عند النهر. متعبات من

الغسيل والنشر، من طلعة الشمس لغروبها، ملاءات غالية من
نسيج الكتان العربى. كن ثلاث أخوات، وصيفات فى قصور
الملك، الكبرى اسمها أندارا، والوسطانية اسمها إيسابيللا،
والصغرى، الأءدّينا.

الكبرى — الجدة المسكينة، تغنى لتتغلب على ألمها!

الوسطانية — دائماً تغنى لأن الطفل يبكى!

الصغرى — هل تعرفن لم يبكى الطفل؟... لأن تلك
النعجة البيضاء التى ترضعه أصيبت فى الجبل، ولهذا بكى
الطفل...

الأختان — هل رأيته؟... متى حدث أن رأيته؟

الصغرى — فى الفجر رأيته نائماً فى المهد. كان فائق
البياض مثل زبد النهر حيث كنا نغسل، وبدا لى أن يديّ عندما
تلمسه سوف تحمل شيئاً من حياته، كما لو كان شذى يطهرهما.

الأختان — والآن عند مرورنا نتوقف لنقبله.

الصغرى — وماذا ستعطينا الجدة عندما تسألنا؟ عن
نفسى، فهى ستعطينى قماشة مغزولة ومنسوجة بيديها لكى
أغسلها لها، وأول ما تبتل سيأخذها التيار...

الوسطانية — أما أنا فستعطينى شلة خيط، وأول ما
سأنتزعها من شجرة العليق حيث وضعتها لتتشف، وطائر أسود
سيحملها بمنقاره... .

الصغرى — أنا لا أعرف ما الذى سنعطيه لها!... .

الوسطانية — ولا أنا أيضًا يا أختى.

الكبرى — سنمر فى صمت، وبما أنها عمياء فلن ترانا.

الوسطانية — سمعها يعرف وقع الخطوات.

الكبرى — سنكتم صوت خطواتنا بالسير فى العشب.

الصغرى — عيناها تخمنان الظلال.

الكبرى — عيناها متعبتان من البكاء.

الوسطانية — هيا بنا إذاً، وكلنا سنسير على حافة الطريق،
حيث على الحافة تنمو الأعشاب.

الأخوات الثلاثة، أندرا، إيسابيلا، ألاءدينا، مضين فى
صمت وسرن على حافة الطريق. رفعت العجوز عينيها للحظة
دون أن ترى، بعد ذلك واصلت هدهدة الطفل والغناء له.
الأخوات الثلاثة عند مرورهن أدرن رعوسهن. ابتعدن ثم
اختفين، واحدة وراء الأخرى فى المنعطف. وهناك فى سفح
الجبل ظهر الراعى، يعبر ببطء، وفى سيره يعتمد على عكازه.

كان شيخاً مسناً، كل ما يلبسه من الجلود، بلحية بيضاء مهيبية،
يبدو كواحد من أولئك الرعاة ذوى القلوب الرحيمة الذين أحبوا
الطفل يسوع فى حظيرة بيت لحم.

الراعى — لقد غربت الشمس بالفعل، لماذا لم تدخل إلى
داخل البيت مع حفيدك؟

الجدة — داخل البيت يطوف الموت... ألا تحس بخبط
الأبواب؟

الراعى — إنها الريح التى تأتى مع الليل...

الجدة — آه!... أنت تظن أنها الريح!... إنه الموت!...

الراعى — والنعجة ألم تظهر؟

الجدة — النعجة لم تظهر، ولن تظهر...

الراعى — شبابنا ظلوا يبحثون عنها طوال يومين كاملين.
لقد تعبوا هم والكلاب...

الجدة — والذئب ضحك فى جحره!...

الراعى — أنا أيضاً تعبت فى البحث عنها.

الجدة — كلنا تعبنا!... فقط الطفل استمر ينادى عليها
وسط بكائه، وسيستمر، وسيستمر...

الراعى — أنا سأنتقى من بين قطيع أغنامى نعجة مسالمة.

الجدة — لن تعثر عليها، فالنعاج المسالمة تأكلها الذئاب.

الراعى — قطيعى تحرسه ثلاثة كلاب تسهر عليه. عندما أعود إلى الجبل، سأهدى الطفل نعجة مع خروفها الصغير الأبيض.

الجدة — آه كم أخاف أن يأتى الأمل ويدفن فى قلبى كما فى عش قديم مهجور تحت طنف السقف!...

الراعى — الأمل طائر وهو الذى يغنى لكل القلوب.

الجدة — أنا واحدة فقيرة لا أملك ما يسرنى، لكن طالما بقيت لى أصابعى تحس، فإنها ستغزل مقابل هديتك غزلاً بقدر ما تعطيه النعجة. لكن حفيدى لن يعيش!...

ثلاث ليال مرت منذ أخذت الكلاب تعوى. عندما وجدته فى المهد وأحسست برفيف أجنحته، أجنحة الملاك كما لو كان يريد تعلم الطيران...

عاود الطفل البكاء، لكن بالشكل الذى يبكى به طفل حديث الولادة، وكل مرة يبدو أكثر خفوتاً، وبلا عزاء. وعاودت جدته هدهدته بالأغنية القديمة القصيرة. والراعى أخذ يبتعد شيئاً

فشيئاً، فسار فى حقل أخضر، حيث كن يلعبن بركوب العجلة.
غنى المقطوعة الصغيرة للأطفال، الأغنية القديمة القصيرة
نفسها التى غنتها الجدة بقلب كسير، طفلات بجونلات ممثلة
بالزهور اقتربن من العجوز التى لم تحس بهن، وواصلن هدهدة
حفيدها. والطفلات رأين فى صمت، وهن يبتسمن، الجدة وهى
تكف عن الغناء، وترقد الحفيد فى المهد.

الطفلات — أهو نام يا جدة؟

الجدة — نعم هو نام.

الطفلات — يالبياض لونه!... لكنه ليس نائماً، يا جدة!...
له عيان مفتوحان... يبدو أنه يرى شيئاً لم يسبق أن رآه...

الجدة — شيئاً لم يسبق أن رآه! إنها الحياة الأخرى!...

الطفلات — إنه يبتسم ويغمض عينيه...

الجدة — بعينه المغمضتين يواصل رؤية ما سبق أن رآه
نفسه. إنها هى روحه الطاهرة التى رأت.

الطفلات — إنه يبتسم...! لماذا يبتسم وعيناه
مغمضتان؟...

الجدة — يبتسم للملائكة.

ريح عاصفة هبت على الشعر المعصوب دون أن يتموج.
إنها ريح باردة لدرجة أنها تجعل العيون تدمع، والحفيد ظل دون
حركة في المهد. أما الطفلات فابتعدن شاحبات خائفات وبسبطء
وفى صمت ممسكات بأيديهن.

الجدة — أين أنتن؟ قلن لى: أمازال يبتسم؟

الطفلات — لا، لم يعد يبتسم...

الجدة — أين أنتن؟

الطفلات — لقد مضينا بالفعل..

فكنن أيديهن وانصرفن سريعاً. ومن بعيد سُمع صوت
جرس صغير، والجدة انحنت تتنصت... إنها النعجة الأليفة
العائدة كى ترضع الطفل، وصلت كما الدون الذى أرسله ملك
المجوس، بضروع مليئة بالخير. تعرفت إلى الأماكن وتقترب
بثغاء عذب، حاملة خصلاً من الصوف المشط بنباتات الوزال
والعليق الجبلية. بسطت العجوز فوق المهد راحتيها كى ترفع
الطفل، لكن اليدين المسكينتين المجعدتين المرتجفتين
والشائختين، وجدتا أن الطفل قد تيبس.

الجدة — والآن أنت فارقتى، يا حفيدى! أى وحدة تركتني
فيها! أوه! لماذا لم تطبع روحك، روح الملاك قبله على فمى
وتأخذ معها روحى المثقلة بالآلام؟... أنت كنت مثل غصن

وردات بيضاء فى باقة الورد التى تزين التابوت الحزين
لحياتى... لو مددت لى يديك، لكنت الأجنحة البريئة للبلابل التى
تغنى فى السماء للآباء القديسين، لو قبلنى فمك فستكون نافذة
ممتلئة بنور الشمس التى تتفتح على الليل... وكنت أنت كشعلة
كبيرة من شمع أبيض فى هذه الباقة المعتمدة لحياتى!... أعد لى
حفيدى أيها الموت الأسود!... أعد لى حفيدى!...

وبذراعيها الممدودين، دخلت بيتها المهجور وخلفها
النعجة. وتحت السقف تعالى صوت صرخاتها. والريح هبت
لتخبط الأبواب.

بياتريث

الفصل الأول

كانت حديقة ضخمة تحيط بالقصر، يسودها جو نبيل يساعد على استجماع الأفكار، وبين أحواض الريحان الذى تتجدد شجيراته جيلا بعد جيل، يسطع البياض الناصع لتماثيل آلهة، مسكينة التماثيل المشوهة!... أشجار الأرز وأشجار الغار تنحني فى جلال يظله الجزء فوق النافورات المهجورة: نصف إله بحرى، نصفه إنسان ونصفه سمكة مغطى بأوراق الشجر، يتدفق الماء فائراً بين وقت وآخر من ضحكته الخيالية، والمياه تترجرج فى الظل، بنبض حياة خفية مسحورة.

والكونتييسة تقريباً لم تخرج أبداً من القصر، تطل متألمة الحديقة من بلكونة غرفة نومها المبنية بأسلوب معمارى إسبانى مقلد لأساليب الصياغ، وبابتسامتها المحببة، ابتسامة كريمات الأصل الورعات، طلبت من فراى أنخيل، قسيس الكنيسة الخاصة بالقصر، أن يقطف الورود من أجل مذبح المصلى. كانت الكونتييسة شديدة التقوى. تحيا مثل رئيسة دير راهبات منزوية فى الحجرات الحزينة التى يسودها الصمت بقصرها. بعينين ملتفتتين إلى الماضى: ذلك الماضى الذى تتكاثر فيه أساطير ملوك الجيوش وشعارات الأسر! كارلوتا إيلينا أجيار إى بولانيو، كونتييسة دى بورتادى، ولقد تعلمت عندما كانت طفلة

كيف تتهجي التقاليد القديمة الخاصة بالنبلاء. وهي تنحدر من سلالة بيت باربانثون، واحد من البيوت الأكثر عراقية، والمشهور بعظمائه، حسبما أثبتت أحكام منح ألقاب الشرف، وخطابات بها موقعة من سمو الملك دون كارلوس الأول، والكونتيسة تحتفظ بها، كما الآثار الدينية المقدسة، تلك الأوراق ذات الأثر العظيم على من يحوزها وما تمنحه من عظمة، فى صندوق مكسو بالقطيفة الحمراء القرمزية، التى منذ قرون مضت وهى مكتوبة بنوع من أحرف الطباعة كذكرى بحروفها الكبيرة المزينة بالزهور، وحواشيه المفرطة فى زينتها، والصور التى لحيوان خرافى نصفه الأعلى نسر ونصفه الأسفل أسد الخاصة بشعارات المدن والأسر، ورموز أشرفها، وريشاتها التى تزين بها أغطية الرأس، وشعاراتها المقسمة إلى ستة عشر قسمًا مرسومة بصور مصغرة ملونة بعبق رهبانى، بالألوان الخاصة بشعارات المدن والأسر التى تتكون من: الأحمر، والأزرق، والذهبي، والفضي، والأسود، والأخضر.

كانت الكونتيسة هى الابنة الوحيدة للشخصية الشهيرة ماركيز دى باربانثون، الذى كثيرًا ما كان يظهر فى الصورة فى الحروب الكارلية، وعمل السلام بعد خيانة برجارا — وأبدًا لم يطرق بابه المخلصون له للعب دور آخر فى الاتفاقية — هاجر المركيز دى باربانثون إلى روما. ومثلما كانت تلك الأزمنة هى الأزمنة الجميلة للبابا الملك، الفارس الإسباني كان واحدًا من الوصفاء الأشراف الأجانب للملك مع تولى منصب أمير فى

الفاتيكان. وخلال أعوام طويلة كان يحمل على كتفيه العباءة الزرقاء للحراس النبلاء. وقد أظهر بسالته قميص مشرط ليرى من تحته قميص غيره من القطيفة القطنية الناعمة. وهو الطقم نفسه لرجل جميل الوجه معتدل القد الذى رسم به البارع جدًا سانشيو للجميل جدًا ثيسار بورجيا!

ألقاب الماركيز دى باربانثون، كونت دى جواندارين وسنيور دى جوا سقطت مع الفارس الطيب دون فرانشيسكو خابيير أجياراى بيندانيا، الذى لعنه فى وصيته واتهمه بالخطرة المخلص الكاستياني، وكل ذريته، لو كان من بينها واحد فقط، والذى يكون خائناً، مغروراً، يدفع ضريبة ربع سنوية عوضاً عن الاشتراك فى الحرب مقابل عدد معين من الجنود أيًا كان السيد الملك الذى لم يكن ليمنحه الرب غفرانه. ابنته أعجبت وهى تبكى من شهامة سموه من هذه اللعنة التى تصعد من عمق ضريح، واحترمت المشيئة البابوية، وتركت فاقدة الألقاب التى شرفت عشرين من أجدادها. لكنها تتهدد دائماً من أجل لقب ماركيز/ ولاية أمير الثغر دى باربانثون. ولكى تتعزى اعتادت القراءة، عندما تكون عيناها أقل إجهاداً، ونبل راهب أرمينتاريث حيث يحكون عن أصول مثل هذا النسب المجيد. ولو أنها بشكل متأخر جدًا حازت على لقب كونتيسة، فقد كان ذلك بعفو بابوى.

الفصل الثانى

اليد المعذبة النحيلة لخادم كنيسة القصر، رفعت الستارة الكبيرة بشعار الأسيرة، والتي هى من الحرير الدمشقى القرمزى.

— أتأذنين لى بالدخول يا سيدتى الكونتيسة؟

— تقدم يا فراى أنخيل.

دخل الخادم الكنيسة. كان عجوزاً طويلاً وناشفاً، وله مشية منضبطة وعسكرية واتصل بالباربانثون، حيث حصل على امتيازات ناظر الوقف، ما إن تم نزوله على باب القصر. ومازال لم يخلع المهمازين. هناك فى عمق حجرة استقبال السيدات، الكونتيسة الرقيقة تنهدت مسترخية على الكنبه المكسوة بالحرير الدمشقى الأحمر. بالكاد رآها داخل الصالة. حل الليل شتوياً مكفهرًا. والكونتيسة صلت بصوت خفيض، وأصابعها زنايق بيضاء سجيبة قفازات تبقى الأصابع عارية، مطرزة بالدانتيل، مرت بتمهل حبات مسبحة جىء بها من القدس، صرخات طويلة حادة وصلت إلى الصالون من عمق سكون القصر: رجت الظلمة، ووصلت لسكون يطلق نبضات مثل أجنحة خفاش شيطانى... فراى أنخيل رسم علامة الصليب:

— استرنا يا رب! ما من شك أن الشيطان يواصل تعذيب
الآنسة بياتريث... أليس كذلك؟

— أنهت الكونتيسة صلاتها، ورسمت الصليب، بالصليب
الذى بالمسبحة والمرسوم عليه المسيح مصلوبًا، وتنهدت:

— مسكينة ابنتى! الشيطان استولى عليها... بالنسبة لى
فإنه يصيبنى بالفزع أن أسمعها تصرخ، وأراها وهى تتقلب مثل
سلماندر فى النار... ولقد قالوا لى فى إحدى المصحات بأن
علاجها يوجد عند السلتيين وسيكون من الضرورى الاستتجاد
بهم. وهم يحكون بأنهم فعلوا معجزات.

وفراى أنخيل، متحيرًا، حرك رأسه المعتمدة فى سلك
الأكليروس:

— نعم سيفعلون ذلك، لكنهم يضعون يدهم على الأرض
لعشرين سنة.

— أأمر بتجهيز العربة، يا فراى أنخيل.

— مستحيل، فى هذه الطرق، يا سيدتى.

— ستحمل على محفة.

— لكنه صعب فقط، وصعب جدًا! المصحة قضى عليها
من قرن، لقد صارت أثرًا... وظل ينظر مفكرًا إلى الكونتيسة،

خادم الكنيسة لزم الصمت: كان رجلاً عجوزاً بعينين عابستين،
والصورة الجانبية لوجهه تظهره وجهًا ثعبانيًا، لا يتحرك كأنه
منحوت من الجرانيت. يذكر هؤلاء الأساقفة (المحاربين) بأنهم
فى الكاتدرائيات نائمون أو يصلون فى ظل قوس ضريحى.
وفراى أنخيل لا بد أنه كان واحدًا من هؤلاء الطائشين المنبوذين
فى سلك الأكليروس الذين يسرقون الأموال من كنائسهم لتقديمها
مساعدة للعصابة. سنوات بعد ذلك، انتهت الحرب بالفعل،
ومازال يواصل إقامة قداسه من أجل روح ثومالا كاريجى.
والسيدة، بيديها على الصليب تهدت. صرخات بياتريث تصل
إلى الصالون فى هبات جنونية، وعواء مسعور. المسبحة
ترتعث بين الأصابع الساجية للكونتييسة التى فى انتحابها،
همست تقريبًا بدون صوت:

— مسكينة ابنتى! مسكينة ابنتى!

وفراى أنخيل سأل:

— وهل لن تكون وحدها؟

أغمضت الكونتييسة عينيها، ببطء، فى الوقت نفسه الذى
بإشارة مفعمة بالإعياء، أحنّت رأسها على وسائد الكنبه:

— ستكون مع عمى الجنراله والسيد المصلح لتقبل
توبتها، والذى سيرقيها، ويتلو التعاويذ عليها.

— آه! ولكن هل هو موجود هنا السيد المصلح الذى
سيقبل توبتها.

والكونتيسة أجابته وهى حزينة:

— عمتى أنت به.

وفراى أنخيل قام واقفاً على قدميه بفرع غريب:

— ما الذى قاله السيد المصلح وتقبل التوبة؟

— أنا لم أره حتى الآن.

— هل مضى وقت طويل منذ حضوره إلى هنا؟

— ولا هذا أيضاً أعرفه يا فراى أنخيل.

— ألا تعرفينه يا سيدتى الكونتيسة؟

— لا... لقد قضيت وقت العصر كله فى الكنيسة

الصغيرة... اليوم بدأت صلوات التاسوع (تعبد يستمر ٩ أيام)

لعذراء برادومين، ولو مننت على ابنتى بالشفاء، فسأقدم لها

كهدية عقد اللآلى والأقراط التى آلت إلى من جدتى الماركيزة

دى بلربانثون.

استمع إليها فرأى أنخيل وقد اجتاحه إعصار من القلق.
وعيناه العابستان تحت حاجبيه، بدتا كعيني حيوان جبلى مفترس
مغتاضتين. سكنت السيدة وتهدت. وخادم الكنيسة بقى واقفاً:

— سيدتى الكونتيسة. أنا ذاهب لأمر بإسراج البغل. وهذه
الليلة سأكون عند السلتيين ولو ترتب على ذلك نقلها إلى
المصحة، فلا بد أن يتم هذا فى تكتم شديد. وحوالى الفجر يمكن
أن نكون هنا.

وأدارت الكونتيسة نحو السماء عينيها اللتين أحاطت بهما
هالات زرقاء ضاربة للسواد:

— يفعل الله ما يشاء!

والسيدة النبيلة لفت المسبحة بين أصابعها الشاحبة،
ورفعت قامتها حتى تعود للناحية التى بها ابنتها. قط كان نائماً
على الكنبه، ففر إلى الأرض، مقوساً عموده الفقرى وظل
يموء... فرأى أنخيل سبقه: واليد السوداء الضامرة لخادم
الكنيسة، جذب الستارة الكبيرة المزينة بشعار الأسرة.
والكونتيسة مرت وقد غضت بصرها فلم تتمكن من أن ترى
كيف كانت تلك اليد ترتعش.

الفصل الثالث

بدأت بياتريث مخلوقة ميتة: برموش عينيها المغمضة دون أن تكون مقفلة تمامًا، والخدين شديدي الشحوب، والذراعين الممدودين بطول الجسم. راقدة فوق السرير الخشبي العتيق الذي وصل إلى الكونتيسة بواسطة فراي ديجو أجيار، أسقف البيت النبيل دي باربانثون ممنوحًا بقرار قديس. غرفة النوم التي لبياتريث كانت صالة كبيرة، أرضيتها من خشب الكستناء، معتمة وكثيية. لها نوافذ ضيقة بقاعدة حيث تهدل الحمامات، وأبواب لها طابع أبواب الأديرة، من طراز قديم من خشب معشق ينفتح وينغلق في أناة، وترابيس رقاصة في حديد مزخرف بشكل وردات. السيد بينيديتثاريو وميسيا كارلوتا، والجنرال، انسحبوا إلى غرفة النوم المنعزلة تمامًا وهم يتحدثون بصوت خفيض جدًا. الكاهن طوى عباءته الكنسية. صدغاه حليقان، وجبهته عاجية، تلمع في العتمة. يبحث عن الكلمات كما لو كان في كتاب تعليم أصول الاعتراف، واضعًا أقصى العناية فيما يقوله ومستخدمًا دورات طويلة بالنسبة له. ميسيا كارلوتا استمعت إليه بانتباه، وبين أصابعها، الجافة كما لو كانت لمومياء، تهتز الإبر الخشبية والحركة السريعة لشغلها بالإبرة

لجوربها الطويل. كانت شاحبة، ودون أن تقاطع السيد المصلح،
من وقت لآخر، كانت تكرر بنفس مكسورة:

— طفلة مسكينة! طفلة مسكينة!

وكلما كانت بياتريث تنتحب كانت تتنهد، نهضت كى
تعزيها. بعد أن عادت إلى جوار الكاهن، الذى بيديه المتعاطفتين
اللتين كانتا تقريبًا مختبئتين بين طيات ردائه الكنسى، بدا غارقاً
فى تفكير خطير. والمبشرة كارلوتا، التى كانت دائماً سيدة تتميز
بقوة التحمل، مسحت عينيها ولم تكن تملك إخفاء ألمها. أما السيد
المصلح بينيديكتيناريو فقد سألها بصوت خفيض:

— متى سيصل ذلك الراهب؟

— ربما يكون قد وصل.

— مسكينة الكونتيسة! ماذا سيفعل؟

— من يدري!

— هل لا تشك هى فى أى شىء؟

— لا تستطيع أن تشك!...

— إنه أشد إيلاًماً لو أن لديها ما تقوله له...

وصمت الاثنان... وظلت بياتريث تبكى، وبعد ذلك بقليل دخلت الكونتيسة، التى حاولت جاهدة أن تبدو فى حالة من السكينة: وصلت حيث تضع بياتريث رأسها، انحنت فى صمت وقبلت الجبين اليابس للطفلة.

وبيدين متقاطعتين على شكل الصليب، متألّمة، وعيناها شاخصتان، ظلت لوقت طويل تتأمل تلك الملامح الحبيبة. إنها الكونتيسة التى مازالت جميلة حتى الآن، سامقة القامة، ووجه شاهق البياض بعينين زرقاوين ورموش شقراء، من شقرة وردية، والتى تحتفظ بلمسة خفيفة من ظل فى هاتين الوجنتين الحزینتين العاليتين المتکبرتين. والسيد المصلح اقترب:

— كونتيسة، أنا فى حاجة للكلام مع ذلك — فرای أنخيل.

صوت الكاهن، صوت عادى ودود وهامس، لكنه كان مشحوناً بصرامة. والكونتيسة التفتت مندهشة:

— فرای أنخيل ليس موجوداً بالقصر، سيدى المصلح بينيديتینثاریو.

وعيناها الزرقاوان، فقدتا بريقهما من الدموع، تساءلتا بالحاح، فى الوقت نفسه الذى كانت ترتعش فيه فوق الشفتين الذابلتين ابتسامة محببة وبصيرة بالعواقب من سيدة تقية. وميسيا

كارلوتا، التى كانت عند رأس بياتريث اقتربت منهما وبصوت خافت:

— لا تتكلما حضراتكما هنا.... كارلوتا تقدرانهما
تقدرا....

— يا إلهى، ما الذى يجرى؟

— اهدئى!

وفى الوقت نفسه قامت الكونتيسة وخرجت من الغرفة. والسيد المصلح بينديتيناريو بارك بدون صوت بياتريث. وبدون أن يمسك بردائه ذى الذيل الطويل، خرج وراءها. وميسيا كارلوتا بقيت على عتبة باب الغرفة: لا تتحرك وهى تمسح دموعها، تتأمل من هناك كما لو أن الكونتيسة والمصلح بينديتيناريو ابتعدا فى ممر طويل. بعد ذلك، رسمت علامة الصليب. وعادت بجانب بياتريث، ووضعت يدها ذات التجاعيد فوق الجبين الأملس للطفلة:

— ابنتى الصغيرة، لا ترتجفى!... لا تخافى!...

ركبت على أنفها نظارة أنفية مزينة بقطع من الصدف، وفتحت كتاب الصلوات، فى الموضع الذى حددته بوضع الشريط الحريري الأزرق، كانت مازالت دائخة وبدأت تتلو بصوت مرتفع:

صلاة

أوه أيتها الحزينة المتألّمة يا مريم العذراء، سيدتى، والتي
تواصل الآثار المقدمة لحبيبك الابن، وسيدى يسوع المسيح،
مصلوب على جبل الجلجثة، حيث الروح المقدمة فداءً تحب أن
تهديهم، مثلما جرى فى جبل المر، وأنت مسحت أيتها الأم
الخطايا للجنس البشرى! امنحينى، أيتها العذراء مريم، بحق
البركة السماوية، العفو عن الخطاة، وأبعدى عن روحى الأرواح
الشريرة التى تحاصرها؛ ذلك لأن لك القدرة على أن تطردى
الشياطين من الأجساد والأرواح. أنا منتظرة، يا مريم العذراء
أن تمنحينى ما أطلبه منك، نعم لأكون كذلك من أجل مجدك
الأعظم، وخلصى الأبدى. آمين.

وردت بياتريث:

— آمين!

الفصل الرابع

عينا القط، اللتان كانتا تشعان بجوار المجرمة، وتضيئان في الظلام، والمجرمة الكبيرة من النحاس الأصفر مازالت تحتفظ بين الرماد ببعض الجمرات الموشكة على الانطفاء. وفي العمق من الغرفة بدا واضحًا بالكاد من الصالون، فوق مجموعة الستائر المخملية، يلمع معدن بشعارات الشرف المطرزة، جسر فضي وتسعة أقراص ذهبية، والتي منحها الدون إنريكي الثالث بالأسلحة إلى السيد دي باربانثون، بدرو أجيار دي تور، الملقب بالكبش وأيضًا الشيخ. الورود الذابلة تشيع عطرها في الظلام، وتتساقط أوراقها خفية في زهریات عتيقة من البورسلين تحاكي أيدي مفتوحة. وخادم قام بإشعال الشمعدانات الفضية التي كانت موضوعة فوق المناضد المستندة إلى الحوائط (كونسولات) بعد ذلك دخلت الكونتيسة ومعها المصلح بينيديكتيناريو الصالون. وبإشارة دالة ونبيلة من السيدة، طلبت من الرجل الكنسى أن يجلس على الكنية. ومرتجفة وبنفس مكسورة من الهواجس السوداء، تركت نفسها لتسقط في المقعد، وخادم الكنيسة بصوت كاهن ممسوح بالزيت المقدس وبطريقة احتفالية أخذ يقول لها:

— إنها ضربة مروعة، يا كونتيسة...

والسيدة تنهدت:

— مروعة، يا سيد بينيدتينثاريو!

وبقيا صامتتين. والكونتييسة جففت الدموع التي أغرورقت في حدقتيها بزرقتيها العميقة. وبعد أن مرت لحظة همست، وكشف صوتها عن تطلع كانت تحاول بالكاد أن تخفيه:

— أخشى جدًا ما سوف تقوله لى حضرتك!

والكاهن أحنى ببطء جبينه العارى الشاحب، الذى بدا متمرسًا بالتأملات الدينية الجليلة:

— إنه من الضرورى الامتثال لمشئة الرب!

— إنه من الضرورى... ولكن ما الذى فعلته أنا لأستحق التعرض لتجربة بالغة القسوة مثل هذه؟

— من الذى يعرف، إلى أى مدى بلغت به ذنوبه! وما هى تدابير الرب، نحن لا نعلمها.

والكونتييسة تقاطعت يداها وهى متألمة:

— انظر إلى ابنتى بياتريث، محرومة من الرحمة، وممسوسة من الشيطان... والكاهن قاطعها:

— لا، هذه الطفلة ليست ممسوسة من الشيطان!... لقد مضت علىَّ عشرون سنة وأنا مصلح ومتقبل للتوبة فى كاتدرائيتنا، والتزام أدبى شديد الإيلام، شديد الغرابة، لم أره من قبل الاعتراف من هذه الطفلة المريضة، مازال يخالجنى!...

رفعت الكونتيسة ناظريها إلى السماء:

— إنها معترفة! وبلا شك أن الرب إلها يريد أن يعيد لها نعمته. إننى أعانى كلما أرى ابنتى المسكينة ضجرة من كل أعمال الشيطان! لأنها، قبل ذلك، كانت ممسوسة، أيها السيد المصلح.

— لا يا كونتيسة، إنها لم تكن ممسوسة أبداً.

ابتسمت الكونتيسة ابتسامة حزينة، وانحنى تبحث عن منديلها، الذى ضاع منها. السيد المصلح التقطه من فوق السجادة، كان ناعماً، دنيوياً مشبعاً برائحة البخور واللبنى (نبات عطرى)، كالقربان بالكأس المقدس.

— ها هو هنا، يا كونتيسة.

— شكراً يا سيدى المصلح.

ابتسم الكاهن ابتسامة عابرة رقيقة. لفت نظرها إليه من خلال لهب الشموع المنعكس على نظارته الذهبية. كان طويلاً

ومحنيًا، بيد أسقف ووجه يسوع. وله جبهة قاتمة لا بريق فيها.
والخدان حزينان، النظرة محببة، الفم غائر، مفعم بالذكاء.

تذكرت صورة الكاردينال كوسمو دي فيرارا التي رسمها
له البيروخينو. وبعد وقفة قصيرة واصل:

— هذا القصر، يا سيدتي، يستضيف فيه كاهنًا/ قسيسًا
غير طاهر، ابن شيطان...

والكونتييسة نظرت إليه مذعورة:

— فرأى أنخيل؟

المصلح أكد بأسف وهو يحني رأسه المغطاة بقلنسوة
رجال الدين الكاثوليك الحمراء، براءة المجمع الكنسي من هذا
الرجل ذي المنصب الأرفع في المجمع الكنسي:

— هذا ما بينه الاعتراف من بياتريث. بالتخويف والإفراط
في استعمال السطوة!...

الكونتييسة غطت وجهها بيديها، اللتين تبدوان من الشمع،
وصرخة لم تخرج من شفتيها... والمصلح ارتعش في صمت.
بعد ذلك واصل:

— لقد أرادت بياتريث أن أكون أنا من ينبه أمها. وكان
واجبي أن أمتثل لرجائها. واجب يدعو إلى الأسف يا كونتييسة.

المخلوقة المسكينة، فى ألمها وحيائها، لم تكن تجرؤ أبداً. يأسها من أن تعترف لى بخطيئتها كان هائلاً جداً، حتى وصل إلى أن أدخل الخوف إلى نفسى. وهى تعتقد أن روحها هالكة، ضائعة للأبد!

والكونتيسة دون أن تكشف عن وجهها، وبصوت مبجوح من النحيب، صاحت:

— لا بد أن أقتل القسيس! لا بد أن أقتله! وأما عن ابنتى فلن أراها بعد ذلك!

الكاهن تمالك نفسه فى موقفه المفعم بالصرامة:

— يا كونتيسة، العقاب يجب أن يترك للرب، أما بالنسبة إلى هذه الطفلة، فلا كلمة واحدة تسبب لها المعاناة، ولا نظرة يمكن أن تخطئها.

ولبثت ضائقة الصدر، متخشبة، أشبه بأمام ضريح مفتوح لأبنائها. وهناك فى الخارج أجراس أحد الأديرة كانت تفرع بفرح، معلنة التأسوع الذى تقيمه الراهبات طوال السنين الماضية فى صلوات ملائكية. وفى الصالون، كانت الشموع تبكى فوق الشمعدانات المعلقة الذهبية المعلقة على الحوائط، وعلى حافة الموقد الذى خبت النار فيه، ينام القط ويرسل هريره المتواصل.

الفصل الخامس

صرخات بياتريث تعالت وسمعت أصدائها فى أنحاء القصر كلها... وأخذت الكونتيسة ترتجف عند سماعها ذلك البكاء الذى يثير الخوف فى سكون الليل، ويجلب الضيق. والطفلة، بأعين شاردة، وشعر محولة صفائره فوق الكتفين، كانت تتلوى: رأسها الشقراء المجدلية كانت تتخبط فى الأرضية الخشبية، ومن جبينها المتخشب الضائق تدفق خيط من الدم. تتلوى تحت النظرة الميئة الحادة للمسيح: مسيح من الأبنوس والعاج، بشعر آدمى، وبقدمين أحسن صنعهما مضاءتين بمصباح فضى يحتضر نوره. استحضرت بياتريث ذكرى تلك الأميرات البيضاضوات الأسطوريات القديسات ذوات الثلاثة عشر عامًا الممسوسات بالشياطين. وبعد دخول الكونتيسة، أضيف إليها مع الضياع، الوجه الرمادى، والشفاه المرتجفة، كورود تتساقط أوراقها، وشعرها يغطى بالكاد البياض الناصع للنهدين:

— ماما! ماما! سامحيني!

ومدت إليها اليدين، اللتين بديتا حمامتين بيضاوين مرتبكتين. والكونتيسة تمنى أن تتلقاها بين ذراعيها:

— نعم يا ابنتى نعم! استريحى الآن.

تلفتت بياتريث بعينين مرعوبتين، تحدقان فى السرير الذى
تعمّه الفوضى:

— آى ها هو الشيطان! ها هو الشيطان نائم! يأتى كل
ليلة. والآن ها هو وقد جاء ورفع عن كتفى وشاحى الرهبانى.
وقد أخذ بعض النهدين. وأنا صرخت، صرخت، لكن لم يسمعنى
أحد. دائماً كان بعض النهدين، وهما يحرقانى.

وبياتريث أرتّه لأمها، بياض النه والندبة الرمادية، حيث
رأت بنفسها الأثر الأسود الذى خلفته الشفتان للرجل الشرير
عندما قبلناه. وشاحية كميتة أمسكت الكونتيسة بالصليب الذى
عليه صورة المسيح مصلوباً ووضعته فوق المخدات:

— لا تخافى، يا ابنتى، سيدنا يسوع المسيح يسهر الآن
عليك!

— لا، لا!

وتعلقت بياتريث برقبة أمها. والكونتيسة ركعت على
الأرض. وبين يديها احتفظت بالقدمين العاريتين للطفلة، كما لو
كانتا طائرين مريضين متجمدين. وخبأت بياتريث جبينها فى
كتف أمها، وهى تبكى:

— ماما حبيبتي، فى ليلة نزلت إلى المصلى لكى
أعترف... وناديتك وأنا أصرخ... وأنت لم تسمعينى... بعد ذلك
كان يأتى كل ليلة، وأنا محكوم علىّ بالهلاك الأبدى...
— اهدئى، يا ابنتى! لا تتذكرى!...

والاثنتان انخرطتا فى البكاء معاً فى صمت، بينما فوق
الباب ذى التعاشيق قديمة الطراز من الحديد على شكل ورود،
يهدل طائرا القُمرىّ اللذين رباهما فراى أنخيل من أجل
بياتريث... والطفلة برأسها المسنودة على كتف أمها، ترتجف
وتتهد وتنام شيئاً فشيئاً. وقمر الشتاء يتألق فى النافذة العلوية
لنوافذ ونوره الأبيض ينتشر فى الحجرة. وفى الخارج يسمع
صوت الريح، التى تهز الأشجار فى الجنية، وخرير ماء بإحدى
النافورات.

أرقدت الكونتيسة بياتريث على الكنب، وهى صامته،
ممتلئة بحرص محب، ثم غطتها بغطاء سرير من الدمقس
القرمزى، دمقس عتيق، والذى يبدو أن فيه شيئاً من جو
الطقوس . وبياتريث تنهدت دون أن تفتح عينيها. ويداها بقيتا
فوق الغطاء. كانتا شاحبتين، بيضاوتين، خياليتين، شفافتين فى
النور: الشرايين الزرقاء ترسمان/ تشكلان وردة حلم. ويعينين

مليئتين بالدموع، احتلت الكونتيسة مقعدًا كان بالقرب منها. كانت متقلّة بحزن بالغ، والذي جعلها تقريبًا غير قادرة على التفكير، وصلت بشكل مشوش، والنوم يغالبها مع سطوع النور على قدمي المسيح، في كأس من الفضة. والآن ومتأخرة جدًا دخلت ميسيا كارلوتا وهي تستند على عكازها، وبمنظارة أنفية تهتز فوق أرنبه أنفها. رفعت الكونتيسة إصبعًا على شفثيها مشيرة لها بأن بياتريث نائمة، والعجوز اقتربت دون أن يصدر عنها صوت، سائرة على مهل وبتعب:

— أخيرًا استراحت!

— مسكينة الروح الطاهرة!

جلست ووضعت عكازها على ذراعي المقعد. والسيدتان حافظتا على السكون. وعلى شراعة الباب واصل طائرا القمرى هديلهما.

الفصل السادس

فى منتصف الليل وصلت المعالجة (بالرقى والتعاويذ) من السلتيين، يقودها اثنان من أحفادها أصبحا الآن عجوزين، فى عربة تجرها الثيران، مستلقية فوق القش. والكونتييسة رتبت خادمين للصعود بها، دخلت وهى تصلى صلاة الصلمودية للدعاء بالصحة والصلوات. كانت طاعنة فى السن بملامح ممسوحة مثل الميداليات القديمة، والعينان خضراوان، من الخضار المؤذى فى أعمال السحر، والذى للنافورات المهجورة، حيث مجتمع الساحرات. السيدة النبيلة خرجت لتستقبلها من عند الباب، وارتعش صوتها وهى تسأل الخدم:

— ألم تروا إن جاء أيضا فراى أنخيل؟

وواحدة من الخدم أجابت المعالجة بأعمال السحر باستسلام العجائز اللواتى يتذكرن زمن نظار الوقف:

— سيدتى الكونتييسة، أنا وحدى التى أتيت، دون أن يكون معى سوى الرب.

— لكن ألم يذهب إلى السلتيين قسيس للتبويه عليكم لكى تأتوا؟

— هاتان العينان الحزینتان لم تریا أحداً.

والخدم تركوا المعالجة بأعمال السحر فى كرسى.
ارتعشت بياتريث: العينان وحشان، مفتوحتان كما لو على جحيم
من الرعب والأمل. والمعالجة بأعمال السحر ضحكت ضحكة
حادة/ جافة من فمها الخالى من الأسنان.

— انظروا كم هى منتبهة هذه الوردة البيضاء! لم ترفع
عينها عنى.

الكونتيسة التى ظهرت واقفة فى وسط الحجرة، سألت:

— لكن لم يقع نظر أحد منكم على القسيس؟

— لا أحد يا سيدتى.

— من الذى نبه عليكم؟

— لم يكن أحد من هذا العالم، بالأمس العصر بقيت نائمة،
وفى المنام تلقينا إلهاماً، بأن الكونتيسة الطيبة تتأدينى ملوحة
بمندیها الأبيض، والذى صار فيما بعد حمامة تطير، تطير نحو
السماء.

سألت السيدة وهى ترتجف:

— وهل هذا فال حسن؟

— لا يوجد شيء آخر أفضل منه يا سيدتى الكونتيسة!.
اتركينى إذا مع نفسى: وهيا بنا إلى قصر السيدة العظيمة.

صحبت الكونتيسة... وبعد وقت قليل، المعالجة بالسحر
التي كانت عيناها متعلقتان ببياتريث أوضحت ببطء:

— بالنسبة لهذه الوردة النضرة فقد أصابتها عين شريرة،
وفى مرآة يمكننى أن أرى، لو أعطتنى السيدة بيدها المرآة.

والسيدة ناولتها مرآة قديمة من الفضة رفعتها أعلى
المعالجة بالسحر مثلما صنع الكاهن بالقربان المقدس، وأفقدها
بريقها بأن كستها بالبخر الذى نفثته عليها بين أنفاسها، وبإصبع
مرتجف رسمت الدائرة التى للملك سليمان. حتى انمحت بالكامل
وبقيت العينان محدقتان فى المرآة:

— الكونتيسة الصغيرة مسحورة. ولكى نفك السحر جيدًا،
علينا أن نتلو الكلمات الثانية عشرة التى تحتوى الصلاة لبياتو
إليكتوس، عند قرع الأجراس الاثنى عشر لمنتصف النهار،
والتي تكون عندما يجلس الأب المقدس إلى القداس ويبارك كل
المسيحيين.

اقتربت الكونتيسة من المعالجة بالسحر: وجه السيدة بدا
لواحدة ميتة، وعيناها الزرقاوان لهما اللون السام للألوان الكحلية
التركواز.

— هل تعرفين القيام بعمل اللعنات؟
— أى سيدتى الكونتيسة، هذا ذنب كبير!
— أتعرفين عملهما. أنا أمرت بأن تقام قداسات والرب
سوف يغفر.

والمعالجة بالسحر فكرت لبرهة:
— أعرف عملها يا سيدتى الكونتيسة.
— إذا اعملها...

— لمن يا سيدتى؟

— للقسيس خادم كنيسة بيتى.

أحنت المعالجة بالسحر رأسها:

— لعمل ذلك نحتاج كتاب الصلوات والأدعية.

خرجت الكونتيسة ثم أحضرت كتاب الصلوات والأدعية
الخاص بفراى أنخيل. والمعالجة بالسحر نزلت سبع صفحات
ووضعتها على المرأة. بعد ذلك بيدين مضمومتين كما يكون
للصلاة تلت الصلموديات:

— أيتها الشياطين! أيتها الشياطين! أحلفك بالشر الذى
أفكر فيه، وأعمالى الشريرة، وبكل ذنوبى، أحلفك بنفس الحية،

وسم العقارب، وبعين البرص. أحلفك لكى تأتى دون تأخير وفى خطر هذه الدائرة للملك سليمان، أحبسك وفيها تكون دون أن تمر دقيقة قد غادرت، حتى أستطيع أن أحملك إلى السجون الكثيبة وتكون قد تخلصت من جحيم الروح التى فى هذه المرأة فى المجال الذى تراه. أحلفك بهذه المسبحة التى أعرف كيف تنتهك حرمتها بك وكيف تموت فى كل مرة أعدها. أيها الشيطان، أيها الشيطان ومرة أخرى أحلفك.

عندئذ تحطمت المرأة بأنين مفجع حزين لروح محبوسة. والنسوة الثلاث، رأين حمامتين، بخوف من أن تتكلمن، بخوف من أن تتحركن، انتظرن النهار، واضعات أيديهن على شكل صلبان. طلع نور الفجر عندما تعالى صوت خبطات هائلة على باب القصر. بعض القرويين من السلتيين يحملون على أكتافهم جسد فراى أنخيل، الذى فى ضوء القمر اكتشفوه طافياً فى النهر... الرأس متصلة، مجزوزة الشعر، مدلاة خارج النقالة.

زعيم

أحكى عن ذلك الطحان العجوز الذى اتخذته دليلاً لى من أجل زيارة الأحجار السلطانية فى مونتى روريث محتفظاً بذكرى قاسية، باردة وحادة مثل الجليد الذى يتوج القمة. ربما أكثر من أساريه، التى تبدو منحوتة فى صلابة الجرانيت. وحكايته المأساوية جعلت ما يمثل هذه القوة يبقى فى الذاكرة . ذلك الوجه الذى فى لون الطباقي، والذى بالكاد يتميز عن الجوخ المصنوع منه غطاء الرأس. لو أغمضت عيني أعتقد أننى سأراه. كثير العقد، جاف وقوى، كجذع عمره مائة عام لكرمة. خصلات الشعر رمادية، وتتناقص وتذكرنى بلحيته هذه البقع من المسك التى تظهر فى المواضع التى تغطيها الأكاسيد فى عظام الوجنات لتماثيل فى الأديرة المنعزلة الخالية من الأثاث. شفاته من الفلين، تلتوى فى صرامة ودون أن تأبه لأحد: له منظر جانبي لا يتحرك ومستغرق فى التفكير. رأس جامد لنقش مصرى بارز. لا، لن أنساه أبداً!

لقد كان محارباً مرعباً. عندما كانت الحرب الأهلية الثانية، دفع إلى ساحة الحرب فى الريف بأبنائه الخمسة، وفى أيام قليلة، نجح فى أن يشعل ثورة من أناس محنكين وجاهزين

ومتحمسين. وأحياناً كان يأتين أخاه خوان ماريا على قيادة
الحزب ويتوغل في الجبل آمناً مثل ذئب له فيه جحر، ويبقى في
انتظاره إلى أن يعاود الظهور حاملاً بندقيته مليئاً بالأربطة
والرقع وآتياً بصحبته شاب قروى بطيء الفهم، وخواف،
وكلاهما سواء في قوته أو درجته، جاء ليزيد الطابور في
الخدمة العسكرية. وفي الذهاب والإياب. اعتاد أن يرتد إلى
الطاحونة ليعرف كيف ذهب الأسر، والتي كانت أحفاده،
والأحجار التي طحنوها. وفي ليلة معينة من ليالى الصيف
وصل ليجد كل شيء في حالة فوضى وغير منظم. قيد إلى
عمود تعريشه امرأة الطحان البائسة، ونادى، دون جدوى على
أحفاده، الذين كانوا قد هربوا إلى القرية: الكلب السلوقي يعوى
بسبب رجله المثخنة بالجراح والمرفوعة في الهواء. والباب كان
محطماً بكعوب البنادق والحبوب والدقيق قد فرشت الأرض:
وفوق حوض العجين أمكن تبين من كانوا موجودين على الطعام
الذى لم يكملوه. وفي حوش الدار كان الصندوق العتيق من
خشب الكستناء مقلوباً ومسلوب كل ما كان فيه... تأمل الزعيم
كيف كانت الكارثة دون أن ينبس ببنت شفة، وبعدما أدرك جيداً
ما جرى، اقترب من امرأته مغمماً بذلك الصوت غير اللائق
والمشتت لعجوز أصم:

— السود أتوا؟

— الأوغاد أتوا!

— فى أية ساعة أتوا؟

— يمكن أن تكون ساعة تناول الطعام، ما أشد ما ارتعبت، ما الذى أفعله لأزيل من رأسى ذكرى ما جرى!

— كم كانوا؟ وما الذى قلته لهم؟

انخرطت زوجة الطحان فى البكاء بشدة. وبدلاً من أن تجيب، انطلق لسانها فى سب أولئك الأعداء الأشرار الذين قاموا بهذا التدمير الهائل فى بيت إنسان فقير، والذى لم يتدخل فى شأن أى أحد فى الدنيا. نظر الزوج إليها بعينيه النحاسيتين، عيني الجليقي السيئ الظن:

— آى، أيتها الشيطانة! ألسنت أنت أكبر ملعونة والتى تخذعنى! أنت التى قلت لهم أين يوجد الحزب.

استمرت تبكى دون أن تجد من يعزيها:

— كفى، يا رجل، أى صورة جعلنى عليها هؤلاء الجلادون من أورشليم! قيدونى تماماً مثل سيدنا المسيح.

أعاد رجل المقاومة التلويع وهو غاضب بالبندقية:

— حتى أرى كيف تجيبين، ووجه لها لكمة، ماذا قلت

لهم؟

— عليك أن تراعى السن، يا رجل!

صمت مطلقاً تتهيدة طويلة، دون أن يجروا على المواصلة، هاله بشدة التجاعيد التي بوجه العجوز، فلم يعد يلح. أخرج السكين، وعندما اعتقدت هي أنه سيقتلها، قطع الأربطة التي تقيدها، ودون أن ينطق بكلمة دفعها ليحبرها على أن تواصل، ولم تتوقف زوجة الطحان عن الأنين:

— آى! يا أولاد بطنى! لماذا لم يتركونى أحترق على شوايات قبل أن أقول أين أنتم. فأنتم كالشموس: أما أنا فعجوز رجلى والقبر. وواجب على أن أسعى ألف سنة لأحج فى الطرق والدروب لأنال العفو من الرب. آى يا أولادى! يا أولادى!

سارت المرأة المسكينة مروعة وقد شبكت أصابعها الخشنة من الشغل فى الكومة الرمادية لشعر رأسها. وهى بنفسها توقفت، تمسدت على خصلات شعرها وتئن، والزوج، كل مدة يغدو أكثر كآبة، دفعها بكعب البندقية، لكن بدون خشونة، وبدون حقد مثل بقرة أليفة مولودة فى نفس الحظيرة، والتي تثبت رجليها الأماميتين فجأة. خرجا من الحوض الملتهب بشمس يوم من أيام أغسطس. وبعد اجتياز مروج بيت ميلياس الريفى، توغلا فى عمق الطريق فى الجبل... تنهدت المرأة:

— أيتها العذراء المقدسة، لا تتخلي عني في هذه الساعة!

سارا بلا توقف حتى وصلا الى منعطف حيث وجدنا
مجموعة أيقونات للأرواح. صعد الزعيم فوق حائط من الطين
والطين، وأخذ يراقب وهو مرتاب كم هي المسافة التي عليه
قطعها من هنا حتى يرى الطريق.

رفع زناد البندقية، وبعد أن أرجع زر الأمان (البستون)
قدس بتأنٍ وقور لمسيحي عجوز:

— سابيلا، اركعى على ركبتيك، جوار مجموعة أيقونات
القديسين.

أطاعت المرأة وهي ترتجف. والعجوز مسح دمعة:

— مكانتك أعلى عند الله، يا سابيلا.

— آى، لا تقتلنى يا رجل! انتظر على الأقل لتعرف إذا ما
كان هؤلاء الرهائن قاسوا وصبروا على أمر سيئ!

رجل المقاومة عاد يمرر يده على عينيه. بعد ذلك شد من
حزامه المسبحة التقليدية ذات الشأن التي حباتها من الخشب،
مرصعة بلون عنبرى مذهب، وأعطاهها للمرأة، التي تناولتها منه
وهي تنتحب. وثبت نفسه على الحائط، وغغم بوجه عابس:

— هذه المسبحة تقدست من السيد قسيس أورينسى، مع
الغفران فى ساعة الموت.

وهو نفسه شرع فى الصلاة بهمة رتيبة وباردة، ومن
وقت لآخر يختلس نظرة قلقة على الطريق، وزوجة الطحان،
شيئاً فشيئاً راحت تغمرها السكينة. وفى الأخدود الوقور للتجاعيد
ظلت ترتجف الدموع: يداها اهتزتا بارتعاش الشيخوخة
المتواصل، وهما تراوحان الصليب وميداليات المسبحة، انحنت
تضرب صدرها وانكبت تقبل الأرض وتتعبد... والعجوز همهم:

— هل انتهيت؟

ضمت يديها وهى تمجد كمسيحية:

— لتكن، يا يسوع، مشيئتك الإلهية!

لكنها عندما رأت العجوز المرعب يشرع البندقية فى
وجهها ويصوب، هبت مذعورة وجرت إليه بذراعين مفتوحين:

— لا تقتلنى! لا تقتلنى بحق الروح الـ...!

دوت الطلقة، وسقطت فى وسط الطريق بجبين مثقوب.

الزعيم عثر فى الرمل الغارق فى الدم على مسبحته،
مسبحة التائر. قبل الصليب البرونزى، ودون أن يتوقف ليحمل

البندقية هرب مباشرة باتجاه الجبل. خمن للحظة فى أعلى الطريق فى الجبل، والطرق الثلاث الممتلئة بالحرس المدنى.

أعترف بأنه، عندما كان أوربينو بيمشال الطيب يحكى لى فى بيانا ... هذه القصة المرعبة، ارتعدت، متذكراً الطريقة العنيفة الإقطاعية التى أطلقت بها النار على بنتادى برانديسو التأثير القديم، انحنيت احتراماً للإرادة الخفية الجرانيتية لذلك الـ "أبو الهول" المنحوت من سندان عتيق مصقول.

قداس من أجل سان إليكتوس

النسوة قليلات الحياء، اللواتى كن يملأن أباريقهن من ماء السبيل، حكين تلك الحادثة بصوت ممتلئ فزعًا.

فالشبان الثلاثة كانوا عائدين من الطاحونة وهم يغنون. والثلاثة عضهم ذئب مسعور يهبط على القرية كلما هبط الليل... والشبان الثلاثة الذين كانت لهم قبل ذلك وجوه متوردة فى حمرة التفاحات، باتوا الآن أكثر اصفرارًا من الشمع، وكل فرحتهم فقدوها وهم يقضون الأيام قاعدين فى الشمس وقد عقدوا أياديهم الضامرة فى دائرة حول ركبهم، وذقونهم مرتكزة عليها. والنسوة قليلات الحياء تتجمعن وتتحدثن حول سبيل الماء، وعندما يرونهم وهن تمررن أمامهم تعودن أن يسألوهن:

— هل رآكم حلاق صحة ثيلا؟

— كلنا، نحن الثلاثة، رحنا له.

— ألم يعطكم علاجًا؟

— هذا المرض الشرس لا يوجد له علاج.

— لقد خدعكم يا شباب، فعلاج الأمراض كلها بمشيئة

الله.

وتتركهم النسوة قليلات الحياء وهن يتمايلن تحت أباريقهن
التي تتساقط منها قطرات الماء، والشبان الثلاثة باقون فى
مكانهم يتطلعون إليهن بأعين حزينة وأنفس مكسورة، هذه
الأعين التى للمرضى والتى تغور داخل محاجرهما. وهكذا انتهى
بهم الحال خلال أيام معدودة. وعندما قرروا مع آخر أمل ردّ
فيهم الحياة؛ خرجوا معًا ليسعوا فى الطرقات، يسألون الناس
الصدقة ليقيموا بها قداسًا من أجل سان إليكتوس.

وكانوا عندما يصلون إلى باب بيت واحد من الأشراف،
فإن السيدات العجائز يأمرن بتقديم المساعدة لهم، أما الصغار
فيطلّون عليهم من البلكونات المبنية بالحجر ويسألونهم:

— هل مر وقت طويل على حادثة العض هذه؟

— لقد أكملنا اليوم ثلاثة أسابيع على يوم عيد سان أمارو.

— وهل حقيقى أنكم كنتم آتين من الطاحونة؟

— حقيقى يا أسيادنا.

— وهل كانت الظلمة شديدة فى تلك الليلة؟

— كانت شديدة الظلمة كما لم تكن أبدًا، حتى القمر كان
محجوبًا، والسكة كلها تقريبًا غارقة فى الظلام.

وبعدما يتلقى الشبان الثلاثة الصدقة يواصلون سيرهم، ثم يعودون ليطوفوا بالشوارع، ويقفون ليحكوا على كل باب حكاية الذئب وكيف عضهم.

ولمّا جمعوا من الصدقات ما يكفي لعمل القداس؛ عادوا إلى قريتهم، وكان ذلك مع حلول المساء، فساروا فى صمت خلال سكة الطاحونة، تلك السكة التى خرج منها الذئب لينقضّ عليهم. والشبان الثلاثة شعروا بخوف مبهم.

ولم تكن الشمس قد غربت بعد. والقمر الوليد المطمس الملامح يطل الآن من السماء. وللمساء ذلك النور الخريفى الحزين الذى يتجلى فيستثير الروح ويملأها بالشجن وقوس قزح يغطى القرية وأشجار السرو القاتمة وأشجار الحور البيضاء الفضية أخذت تتمايل فى أشعة من نور برتقالى متوهج.

وواصل الشبان الثلاثة سيرهم فى ظابور، وما كان يسمع فقط فى هذا السكون هو صوت خبط قباقيبهم على الأرض. وقبل دخولهم القرية؛ توقفوا أمام باب بيت راعى الكنيسة، والذى كان بيتاً قديماً لواحد من الأشراف، ويقع على جانب الطريق. كان راعى الكنيسة يتمشى للتشمس فى الهواء الطلق فى الخلاء. وصعدوا هم إليه، وبتواضع خلعوا أغطية رءوسهم وحيّوه:

— السلام عليكم يا سيدنا الراعى.

— وعلیکم السلام.

— لقد جننا لك هنا لنسألك أن تقيم لنا قداسًا من أجل صاحب المجد سان إلیکتوس.

— وهل جمعتم من الصدقات قدرًا طيبًا؟

— ما طلبناه كثير، أما ما أعطونا فقليل يا سيدنا الراعى.

— ومتى تريدون أن أقيم لكم القداس؟

— مثلما تريد، أما نحن فنريده غدًا باكرًا.

— سأقيمه لكم غدًا، لكن ذلك سيكون فى الفجر، لأننى كنت قد فكرت فى أن أذهب غدًا إلى السوق.

والثلاثة شكروا له فضله، وودعوه بصلاة صلمودية حزينة وهى تتم دائمًا فى صمت.

واصل طابورهم سيره إلى أن دخلوا القرية. أووا إلى مخزن تبين ليقضوا الليلة. وعند طلوع النهار، أول من قام من نومه بينهم نادى على الاثنين الآخرين:

— قوموا يا شباب!

استويا فى قعدتهما بألم، وبأعين ممثلة غمًا وفم تتساقط منه الريالة خيوطًا، الاثنين تأوَّها. والأول قال:

— لست قادرًا على أن أتحرك!

والثانى قال له:

— ارحمنى وساعدنى!

وأخذا ينتحبان وهما مدفونان حتى نصفيهما فى التبن.
يحدقان بأعينهما الحزينة الغائرة فى رفيقهما الذى استوى واقفاً،
وصارا يتشكيان كل بدوره:

وقال الأول:

— خذنى إلى الشمس لأننى أموت هنا من البرد!

وقال الثانى:

— أحلفك بأموالك ألا تتركنا مرميين هذه الرمية!

صوتاها كانا يخرجان متشابھين، ورفيقهما انتابته حالة
من الخوف الشديد فسألها:

— ماذا جرى لكما؟

والصوتان المختقتان تصاعد أنينهما وهما يقولان:

— رحمة بنا خذنا إلى الشمس!

ورفيقهما اقترب منهما ليتأكد من حالتها، لكن، وبالشكل
الذى كانت عليه سيقانهما المتصلبة الكسيحة التى تعوق حملهما؛

تركهما فى مكانهما ومشى خارجاً تاركاً بوابة مخزن التبن مفتوحة من أجل النفوس المحسنة التى قد تمر عليهما والتى يمكنها أن تسعفهما. وما إن ودعهما حتى انخرط فى البكاء:

— إنهم يدقون الجرس الآن من أجل القديس. سأذهب لأسمعه من أجلكما أيضاً. لا تيأسوا، لأننا سنشفى كلنا بمشيئة صاحب المجد سان إليكتوس.

خرج، وفى الطريق ظل يسمع الصوتين المختنقين اللذين يبدوان صوتاً واحداً:

— نجنى من العذاب، يا صاحب المجد يا سان إليكتوس!
— يا صاحب المجد يا سان إليكتوس، لا تتركنى أموت فى هذا التبن مثل كلب!

وعلى باب الكنيسة، كان صبي قروى يدق الجرس للدعوة إلى القديس وهو يشده بجنزير. كان الباب مفتوحاً وما يزال راعى الكنيسة يرتدى رداءه الكهنوتى راكعاً على ركبتيه فى حجرة الكاهن. وبعض النسوة العجائز يقبلن فى الظل وقد اعتمرن بأغطية رعوسهن مع المرايل على الصدور. ومن وقت لآخر يصدر عنهن صوت لعطسة.

شق الشاب طريقه داخل الكنيسة مخففاً وكاتمًا لصوت
خبط فردتى قبقابه، وعلى درجات سلم المذبح، ركع وهو يرسم
علامة الصليب.

والصبي الذى انتهى من دق الجرس أتى وأشعل الشموع،
وبعد ذلك بقليل خرج راعى الكنيسة وقد ارتدى رداءه ليبدأ
القُداس. كان الشاب قابلاً وقد تكور جسده على درجات غرفة
الكاهن، وأخذ يصلى فى تبتل وورع، ها أنا راکع على الأرض
لأقبل البركة...

عندما عاد إلى مخزن التبن كان يجر جر ساقيه، وخلال
ذلك اليوم بطوله؛ أصوات أنين الثلاثة التى بدت صوتاً واحداً
ملأت القرية.

وعند بوابة مخزن التبن كانت النسوة قليلات الحياء دائماً
موجودات، وهن يتطلعن إليهم بفضول. وفى الليلة نفسها، مات
الشبان الثلاثة، وعلى نقالات مغطاة بملاءات من الكتان،
حملوهم ليدفنوهم فى بقعة خضراء، بشذاها العطر، بمقابر
كليمنتى دى برانديسو.

الملك المقتنع

الراعى لسان روستندو دى جونددار، رجل عجوز ضامر وداهية بوجهه وجه الراهب وعينيه المتجهمتين الضاربتين للون البنى كما لو كانتا لواحد من وحوش الجبال الضارية، عاد إلى بيته، بيت راعى الكنيسة، عند حلول الليل، بعد صلاة التسابيح. بالكاد قطعت عليه العزلة فى الريف، متجمداً فى فصل الشتاء، بعض أشجار الحور العارية من الأوراق. بينما كان الطريق مغطى بالأوراق الجافة، طافية فى الشبورة الوردية لغروب الشمس.

وهناك فى المنعطف، ترتفع أيقونات الأرواح المقدسة، وجوارها صندوق مخصص للصدقات مكشوفاً؛ وقد كسر قفله، وتحطم، وليس بداخله أية نقود. كان بيت راعى الكنيسة منعزلاً فى وسط الريف، ولم يكن يبعد كثيراً عن بعض الطواحين، كان لونه مسوداً، ومتشققاً من أثر النار، مثل تلك المتسولات اللواتى يسألن إحساناً، متعرضاً للشمس والأمطار والمخاطر بجوار الطرق الرئيسية. ومثلما يأتى الليل عليها، بتخيلات سوداء لعاصفة ثلجية ومياه مطر، عبر الراعى بسرعة، كاشفاً عن طبيعة الصيد. كان واحداً من أولئك الزعماء مجزوزى الشعر،

والذى بعدما يلح فى طلب الأموال من كنائسه والمعابد ملبيًا نداء الاستغاثة لجماعة الثوار، وهم ينشدون قداسات بلا مقابل على روح ثومالاكاريجى. وعلى الرغم من سنى عمره بقى دون أن يتأثر بمرور الزمن، منتصب القامة، ماضيًا فى وضع يديه فى جيبى بنطلونه المونتى كريستو الأزرق، وعند التحية يخلع قبعته ذات الحواف، ومظلة حمراء هائلة تحت إبطه، ملاطفًا عنق بائع الحجل الخالى فمه من الأسنان، والذى يشتغل خفيرًا على الأرض المعرضة للشمس. دخل راعى الكنيسة إلى المطبخ فى الوقت الذى كانت تقف وهى تتحرك فيه بنشاط وزهو شابة قروية وقد جهزت المائدة للعشاء:

— ما هذا النشاط يا سابيلًا؟

— أنت ترى أيها العم...

وسابيلًا، مبتسمة، مختنقة قليلًا بدخان النار، وبالمنديل المزين بالزهور المعقود خلف العنق ليحتوى كمية الشعر الغزير الكستنائى، وبالقميص الخفيف المصنوع من نسالة الكتان، المشمر، مظهرة أعلى ما يمكن من عند الكوع ذراعيها الأبيضين، شديدى البياض، شقراء فى لون السنبله، غاضبية كطفل رضيع، وارفة مثل فرع أخضر ومزهر وعلى فوهة القدر تبدو نافورة محددة بخطوط شقراء اللون، الطبق التقليدى

والموروث، والذي كان يستخدم فى الاحتفالات قبل ذلك فى جاليثيا. كاتولاس راعى الكنيسة تناول أكلة شهية لعجوز منعم، وبعد ذلك، جلس على الدكة فى حرارة الشعلة، وأخرج من جيبه سيجاراً من طباق غامق والتي نقرها بظفره، وفرك التراب بين كفيه، متصرفاً دائماً برزانة شديدة واجداً دائماً هذه المهمة،...، عندما يلح الكلب فى النباح، والذي يظل يتشمم من ناحية لأخرى، متوقفاً عن خدش الباب بيديه، فيجبره على أن يجد سبباً لإثارة ضجيج مماثل:

— حيوان ملعون!

— سيكون كلباً واعراً؟

— واعراً، براحتته، لو كان واعراً لم يكن لينبح بهذا الشكل.

وفى هذا الوقت ابتدأ العزف فى الطريق شديد العلو، ومزعج، حتى ليبدو هارباً من الجحيم: تباهى بالصنوج والدفوف، صوت زاعق ومفجع من البوق، أصوات نشاز لها صرير تصدر عن الجيتارات؛ والمثلثات، وأبدان الطبول. فتحت سابيلا النافذة وحدقت فى الظلام:

— نعم، إنها فرقة لابسى الأقنعة!

ما كادوا يلمحون الشابة حتى بدأ أفراد من الفرقة الموسيقية المتجولة في العواء، والقفزات وعمل حركات بهلوانية، بينما يدخلون البيت في ضجيج وسهولة من يحمل وجهًا مستعارًا. كانوا حوالى ستة رجال، مسوّدين وجوههم بالهباب كالشياطين ومتكرين في ملابس نساء، وعساكر، وشحاذين: نظارات سوداء، ولحي طويلة من النسالة، قبعات قديمة، عباءات مرقعة، وخرق كلها متسخة، مبتلة، مقرفة مما يجعلهم مثيرين للاشمئزاز والتشاؤم. وفوق نقالات يحملون شبحًا مفزعًا، وقد ألبسوه ما يشبه ملابس ملك أو إمبراطور، بتاج من الورق، وصولجان من القصب: وعلى وجهه يضعون له وجهًا مستعارًا شديد الفجاجة من الكرتون، وما بقى للتكر التام؛ أكملوه بملاءة بيضاء. ناشدهم راعى الكنيسة بمجاملة خشنة أن يكشفوا وجوههم وأن يتناولوا جرعة من النبيذ، رفض أغلبهم وهم يتلعثمون على سبيل المجاملة، بينما كانت قسّمات وجوههم تتعوج، وركبهم تتنثى احترامًا ورءوسهم تتحنى بشكل مضحك.

كانوا قد أنزلوا النقالات على الأرض، وأصابوا مَنْ بالمطبخ بالصمم بسبب الضوضاء بالغة الفظاعة التي أحاطوا بها الراعى الكنسى والشابة. والذين، ليس لهذا السبب، تركوا استقباله لهم بابتسامة كريمة وراضية: الكلب فقط هو الذى احتّمى بأسفل الموقد شاهراً أسنانه بينما ينطلق فى النباح. ألح

راعى الكنيسة على أنهما يعدان النبيذ من محصول كرومه،
وأضاف بعدم ارتياح. والأحسن من ذلك أنه لا يبتعد أكثر من
عشرة فراسخ عن الناحية. إنه نقى كما خلقه الله، دون آثار دنيئة
لعرق الزبيب، ولا لقوته، ولا لنبيذ كاميتشى المكسيكى...
وأشعل مصباحًا، وعلق مفتاحًا صدئًا من بين مفاتيح أخرى
معلقة على عمود خشبي مسود، ونزل السلم الذى يؤدى إلى
القبو، حيث سمع صياحه:

— سابيلا، هاتى الجرة الكبيرة.

— سأفعل يا سيدى العم!

رفعت سابيلا المقلاة عن النار، وأنزلت الجرة وأخفت
الفوهة السوداء، لتأخذ جرعة مثل مخلوق خرافى هائل، وعندئذ،
واحد من لابسى الأقنعة المتكرين اقترب من النافذة وفتحها
ببطء، حريصًا على ألا يصدر صوتًا عاليًا، عصفه ريح أطفأت
القنديل، تاركة المكان فى الظلمة، لكنه ميز فقط الوهج المحمر،
الدامى للجمرات، والحدقات الفسفورية الشيطانية للقط، الذى
تأرجح ذيله بعذوبة، وهو يخفو فوق أحجار الموقد الدافئة. فجأة
ساد صمت عميق. همهم صوت خفيض:

— ما من نفس يمر.

— إذا فعلينا أن نمشى.

تحسسوا الباب بدون تأكد ثم اختفوا كالأشباح. وعلى سلم القبو تصاعد صوت دوس أقدام الضيوف. أنت سابيلا وتوقفت، دون أن تجرؤ على أن تتقدم فى الظلام. ومن خلال النافذة التى كان الآخرون قد تركوها مفتوحة استطاعت أن ترى السماء الغائمة والطريق المبيض من الجليد، والذى يقع عليه ضوء القمر مرتعشاً وكئيئاً:

— لقد أتوا.

وتملك سابيلا الخوف دون أن تعرف لماذا. وراعى الكنيسة الذى أتى خلفها بالفانوس، وبهدوء مرح قال:

— أى أوغاد! لقد رجعوا بالفعل.

وكيف لا يرجعون؟ فهنا فى وسط المطبخ كان الملك غريب الشكل على نحو مضحك فى سكونه المهيّب، بتاجه من الورق، وصولجانه من القصب. والغطاء الأبيض من النسالة، ووجه المهرج من الكرتون... سابيلا، أجابت الآن، متقدمة بضع خطوات، وقربت الجرة من الشفتين:

— أتحب أن تشرب، يا سيدى الملك؟

ابتعدت عنه، فإذا بالوجه المستعار ينحدر بعد ثانية واحدة إلى تحت، كاشفاً جبهة مصفرة، وعينين زجاجيتين، رهيبتين، مرعبتين:

— القداسة لك يا مريم!

والشابة، مرعوبة ارتدت حتى اصطدمت بالحائط. وراعى الكنيسة وبخها:

— أى سيدة أنت؟

— لا... لا... يا سيدى يا عمى... لكنه ميت!

انقبضت فى مواجهة العجوز، اقتربت ونبضات قلبها تتسارع، بهذا الخوف الذى يملك النسوة القرويات، فهى مدفوعة لأن ترى ولأن تقترب فإذا بها تغمض عينيها وتهرب دفعة واحدة.

رئيس الكنيسة رمى الوجه المستعار بعزم. بعد ذلك رفع الفانوس، مسلطاً النور فوق الرجل المقنع الذى لا يتحرك. تأمله باهتمام. واتسعت عيناه فى فضول وهى تنظر إليه بذهول، وأنزل الفانوس الذى اهتز فى يده التى تختلج وهى ترتعش من الشيوخوخة. تمت فى صوت مموه وأبح:

— هل تعرفينه يا شابة؟

وهى أجابته:

— إنه السيد الراهب دى برادومين.

— نعم... غداً نعلن عن قداس على روحه.

سابيلا ارتعشت أعضاء جسمها كله، وارتفع أنينها وهي تتساعل، ما الذي فعلوه. تتدب سوء حظها الذي من جرّائه أن يكون محكومًا عليهم بهذا الذي دخل:

— عمى... عمى يا سيدي! أيمكننا أن نخبرهم في الطاحونة.

الراعى قدر المسألة للحظة:

— لا، هنا أقل من أى مكان آخر. ويبدو لى أنك تعرفين ابنى الطحان. لكن يمكننا أن ندفنه فى الفناء بجوار أشجار البرتقال.

— وإذا اكتشفته الكلاب مثلما حدث بالنسبة لخادم ناظر أوقاف دى سوبران؟ ألا تتذكر؟

— إذا فمعه هنا لن نكون موجودين. هل عندنا جوال؟

— لدينا عدد منها.

وعندئذ مضى راعى الكنيسة إلى النافذة وأغلقها وهو يعتنى بوضع القضيب الذى يحكم إغلاقها، وعمل الشئ نفسه مع الباب:

— الآن استرحنا تمامًا من هذا الكلب، ومن ينادِ على فلن أرد عليه.

وهكذا اختفى البيت! أفهمت؟

خلع البالطو الذى يبلغ حتى ركبتيه، وأمسك بمذراة من تحت القبو. وبعد قليل عاد بربطة ضخمة من الأجولة وأخرى من القش:

تركها تسقط على الأرض وأحدث سقوطها صوتاً مزعجاً أمام سابيلا، التى كانت مكورة جسدها وقابعة بجوار الفانوس، تئن ووجهها ملتصق بركبتها، أمرها بأن توقد النار فى الفرن. واعتدت الصبية مذعنة دون أن تصدر عنها رعشة، شاحبة مثل شبح... لم تتأخر ألسنة اللهب فى أن تتعالى، وموسيقى تصدر عن قطعة الشرر المتدافع، التى تتوغل فى الحطب الناشف، وتغطى القبة والفوهة السوداء للفرن: امتدت ألسنة اللهب حتى وصلت إلى وسط المطبخ مثل نفخة من نفس يضرم النار. وانعكاسات النار التى أشعلها أعطت للون الأزرق الرصاصى المائل إلى السواد لوجه الميت مظهر الحياة. والراعى حل أربطته بالنقالات وعمل على أن تفصله سابيلا، واضعاً رأسه فى الفرن. لكن بما أنه كان متصلباً، انتظر بالضبط إلى أن تفحم الجذع ليدخل بقيته فى الفرن. وعندها اختفت قدماه مدفوعتين بالمذراة التى كان راعى الكنيسة يقلب بها النار، ويؤججها. أما سابيلا، فكانت تقريباً مقطوعة الأنفاس، وتركت نفسها تسقط فوق الدكة.

— آى يا سيدنا... آى شىء يثير الرعب أكثر من هذا...

وراعى الكنيسة تركها ليسقى نفسه كأسًا من النبيذ ليقويه،
وليعطيها مثلاً، فرفع الجرة إلى فمه بحيث حافظ على مسافة
طبية. واصلت سايلا بكاءها:

— بالقوة قتلوه ليسرقوه! شىء آخر لا يمكن أن يكون.
بركة الله التى لم يمنحها لأحد! كان طبيبًا كالخبز! ومحترمًا
كعمدة كبير، وكريمًا كما لو لم يوجد أحد. تقدست العذراء، أى
دخائل سوداء!. باركى يا أمنا السيد!

وفجأة توقفت عن نواحها، قامت، وبثلك البصيرة التى
تولدت من كل تلك الشكوك كنست الرماد، وغطت فوهة الفرن،
بيديها المرتجفتين. راعى الكنيسة جلس على الذكة، ونقر
سيجارًا آخر وتمتم فى هدوء مثير للدهشة:

— مسكين برادومين!... امنحنا يا رب خبزنا كفافنا!

أختى أنطونيا

(١)

سانتياجو بإقليم جليقية وجدت كواحدة من أماكن العبادة
المقدسة في العالم، حتى إن الأرواح هناك كانت تبقى عيونها
يقظة كي ترى المعجزة!

(٢)

في يوم من ذات الأيام، في ساعة العساري، أخذتني
أختى أنطونيا من يدي وذهبت بي إلى الكاتدرائية. كانت أنطونيا
أكبر مني بعدة سنوات، وكانت طويلة، بوجه شاحب، وعينين
سوداوين، وابتسامة هي أقرب إلى الحزن منها إلى الابتسام.
وكنت طفلاً لم أزل، عندما ماتت. ولكن آه، ما أشد تذكرى
لصوتها وابتسامتها ويدها الباردة كالثلج عندما أخذتني من يدي،
وذهبت بي إلى الكاتدرائية عصر ذلك اليوم. أكثر ما أتذكره،
وسط ذلك كله، عيناها وهما تبرقان، والانفعال يحدث فيهما بتلك
النظرة المأساوية التي تتطلع بها إلى ذلك الطالب وهو يتجول
في الفناء ملتفًا بعباءة زرقاء. ذلك الطالب أصابني بالرعب، كان
طويلاً بادي الهزال، بوجه ميت وعيني نمر. عيانان مقلقتان
تحت تقطية جبينه الخشنة القاسية. بل إن أكثر ما جعله أقرب

شبهًا بالموتى عظام ركبتيه، إذ كانت تططق كلما مشى. ولقد سمعتها أمى وهى تططق، ولكى تتحاشى وقوعه تحت بصرها، كان عليها أن تبقى شبابيك بيتنا، المظلة على درب الصاغة، مغلقة. وما أذكره عنه عصر ذلك اليوم أنه كان يتمشى كما يفعل عصر كل يوم ملتفًا بعباءته الزرقاء، ويأخذ حفنة من الماء المقدس، ويمد بها يده لأختى التى كانت تجتاحها الرعدة بينما تتوجه بنظراتها إليه وهى تتوسل، ابتسم لها قائلاً بصوت خفيض:

— "أنا قتيلك!".

(٣)

دخلنا إلى واحدة من قاعات الصلاة، كان بها بعض العجائز يؤدين صلوات أسبوع الآلام. كانت قاعة الصلاة كبيرة خافتة الضوء، بمذبح تتعالى حوله الأصوات تحت القبة بأقواسها الرومانية. قاعة الصلاة تلك منحتنى عندما كنت طفلاً شعوراً غامراً بالسكينة، سكينة الريف. ومنحتنى السكينة المتعة نفسها التى كنت ألقاها تحت ظل شجرة الكستناء المعمرة، أو تكعيبة العنب أمام أبواب بعض الدور، أو صومعة الراهب المعتزل فى الجبل. ودائمًا كان كورس السيدات العجائز يتجمع فى العصارى حيث يرتلن صلوات أسبوع الآلام، فتتجمع الأصوات وتتآلف فى

ترنيمه حاره، تتعالى محلقة تحت القبة العاليه، فتبدو كما لو أن الصلوات تتصاعد كي تضيء الورود المرسومة على الزجاج الملون كشمس الغروب.

ودائمًا كانت تحلق فوقنا سحابة من تهليلات صلوات التمجيد التي تعلو غنتها، ثم تستحيل الصلوات إلى بحة أصوات هامسة فوق المذبح، لنسمع رنات الجرس الفضي يمسك به الشماس الصغير وهو يرفع عاليًا شمعه المشتعلة فوق كتف القسيس القائم بالخدمة الذي كان يتلو من الكتاب المقدس صلوات يوم الدينونة لآلام السيد المسيح. أوه يا قاعة طقوس الصلوات... متى يمكن لروحي، تلك التي شاخنت إلى هذا الحد، والمتعبة إلى هذا الحد، أن تشف وترق وتغمر نفسها مرة أخرى لتذوب في ظلك الذي كان بلسمًا!

(٤)

كانت الظلمة قد حلت تمامًا، والسماء تمطر مطرًا خفيفًا، عندما كنا أنا وأختي نجتاز فناء الكاتدرائية عائدين إلى البيت. ولا بد أن أختي كانت مرعوبة في الدهليز المظلم الواسع لأنها صعدت سلاسل بيتنا قفزًا دون أن تترك يدي تقلت منها. ونحن ندخل رأينا أمانا وهي تعبر الصلاة ثم تغيب خلف باب من الأبواب. رفعت عيني مسكونًا بالخوف والفضول وتطلعت إلى

أختى. ودون أن تقول شيئاً انحنت علىّ وباستتى. وفى قلب أكثر سنى عمرى براءة خمنت السر الذى ائتمنتنى عليه أختى أنطونيا. وكم أحسست بثقله فى صدرى كخطيئة مهلكة. وبينما كنا نجتاز تلك الصالة المعبأة بدخان لمبة الجاز، المكسورة زجاجتها من طرفها العلوى، اتخذت شعلتها شكل القرنين، فذكرنى ذلك بالشيطان. وطوال الليل ظللت مستلقياً فى الظلمة، بينما يتأكد هذا الشبه الكبير بداخلى فلا يتركنى أنام. بل وظل يعاود إقلاقى من النوم طوال ليالى أخرى كثيرة.

(٥)

وعصر كل يوم كان المطر مستمراً فى الهطول، وخلال فترات انقطاع المطر، كان الطالب يروح ويجىء فى فناء الكاتدرائية، لكن أختى لم تخرج وتذهب للكاتدرائية لحضور صلوات أسبوع الآلام. وبينما كنت أذاكر دروسى فى قاعة الجلوس الغارقة فى رائحة الزهور الذابلة، وكنت لكى أراه أترك النافذة مفتوحة بينما يتمشى هو، وحيداً بابتسامة عصبية، وبحلول الليل، بدت هيئة الميت التى له شديدة الشبه بالموتى إلى حد يبعث على الخوف. وأتراجع من أمام النافذة وأنا أرتعد، لكنى ظللت أراقبه فلم أستطع فهم الدرس. وفى قاعة الجلوس الكبيرة، المقفولة، التى ترن فيها الأصوات، أحسست بمشيته، وبقطعة عظام رجليه وصابونتى ركبتيه. ومن خلف الباب

بدأت القطة فى المواء، وخيّل إلىّ أن مواءها يخرج ناطقاً باسم الطالب: ماكسيمو بريتال!

(٦)

بريتال قرية صغيرة فوق الجبال، تقع على مقربة من سانتياجو. والرجال المعمرون هناك يضعون فسوق رءوسهم أغطية رأس من القماش بأطراف مدببة، ويرتدون عباءات من نسيج الصوف المغزول والمعروف بصوف السرج. أما عجائز النساء فيشتغلن بغزل الصوف ونسجه بالإسطبلات، حيث إنها أكثر رطوبة فتحمى الصوف وتحافظ على متانة الغزل أفضل من البيوت. لقد أقام راعى الكنيسة مدرسة فى فنائها، وعلى يديه، كان طلاب العلم من الصبية يتعلمون المبادئ الإجرائية لمهام العمد وموتقى صكوك البيع والشراء المحلية، ويتلون بصوت عالٍ حجج وقف مندثر منذور للصرف على دار الأيتام واللقطاء المنبوذين.

ماكسيمو بريتال كان من أبناء هذه الدار، وقدم إلى سانتياجو لتلقى العلم فى اللاهوت. وعند قدومه حملته امرأة عجوز فى قرينته، تتكسب من بيع عسل النحل، بما يكفيه من الزاد، من أرغفة عيش ذرة ودهن خنزير لمدة أسبوع.

لقد عاش مع آخرين من طلاب العلم الدينى فى أحد المساكن حيث يدفعون فقط، مقابل المبيت، أجره سرير. إنهم حلقة دروس اللاهوت الفقراء، والذين ينادونهم بـ"المجاورين". لم يكن ماكسيمو بريثال قد تلقى بالفعل إلا قليلاً من أسرار الكهنوت عندما دخل بيتنا لمساعدتى فى تعلم قواعد اللغة اللاتينية. وراعى كنيسة بريثال هو الذى كان قد زكاه لأمى باعتبار ذلك عملاً من أعمال الإحسان. وجاءت امرأة عجوز تغطى رأسها بكوفية مما تلتحف بها النسوة فى بريثال لتقديم الشكر حاملة معها، ما يعتبر هدية، سبباً من تفاح زينيت. ولا بد أن واحدة من تلك التفاحات، حسبما قالوا بعد ذلك، كان فيها "العمل" الذى سحر أختى أنطونيا.

(٧)

أما كانت سيدة تقية، ولم تكن تعتقد فى أمور التفاؤل أو التشاؤم، أو فى أعمال السحر، إلا إنها صارت تتظاهر الآن بأنها تعتقد فى هذه الأمور، بل وتبالغ فى ذلك حتى تدارى السنة نار الحب المشتعلة، والتى طالت ابنتها أنطونيا وتوشك أن تقضى عليها. وبالفعل، فمنذ ذلك الحين بدأ يستحوذ عليها ذلك الانشغال بالعالم الآخر، مثلما كان ينشغل ذلك الطالب القادم من بريثال. إننى أتذكرها وهى منشغلة بالتطريز بعيداً داخل الصلاة كما لو كانت غائبة عن الوعي فى عمق مرآة، غائبة تماماً

بحركاتها البطيئة التى تبدو كأنها تتجاوب مع إيقاع يأتى من العالم الآخر . خفوت صوتها وابتسامها لشيء أبعد منا، والبياض والحزن الذى يحيط بها تمامًا يجعلها كمن تطفو فى شفق غامض، ويصيبها شحوب إلى الحد الذى تتراءى فيه وقد لفت رأسها هالة كهالة القمر... يا لأمى، وهى تزيح الستارة عن باب من الأبواب وما إن تنظر باتجاهها حتى تتراجع مبتعدة مرة أخرى، دون أن تحدث صوتاً!

(٨)

عادت العصارى، برقة أشعة شمسها الذهبية، وعادت أختى كما كانت، لتأخذنى معها كى نصلى مع العجائز فى القاعة المخصصة لقداس الجنازات. ولقد كنت أرتعش خوفاً من أن يظهر لنا مرة أخرى عند مرورنا، ذلك الطالب ماداً إلينا يده الأقرب إلى يد الشبح والماء المقدس يقطر منها. وتطلعت بخوفى إلى أختى فرأيت شفتيها وهما ترتعشان. أما ماكسيمو بريتال، الذى كان يتمشى فى صحن الكاتدرائية يومياً ساعة العصر، فلم يكن هناك أى أثر له. لكن فجأة، وبينما كنا نجتاز قاعات الصلاة فى الكاتدرائية، انشقت عتمة الرواق عنه تحت أقواس السقف. وأول ما دخلنا قاعة الصلاة،رمى نفسه جاثياً على درجات سلم المدخل، وقبل بلاطها الذى داست عليه أختى أنطونيا، وبقي جاثماً هناك على تلك الحال، كالتماثيل المنحوتة

فوق المقابر، بينما كانت العباءة فوق كتفيه، واليدان مضمومتان.
وفى عصر يوم آخر، وبينما كنا نغادر الكاتدرائية، فوجئت
بذراع تخرج من العتمة، وتمتد أمامى بأصابعها التى تتدفع
مستميتة فى الإمساك، كالكلابات بطرف جونلة أختى أنطونيا:

— أنا قتيلك، ولا بد أن تسمعينى، ولا بد أن تعرفى كم
أتعذب... وهل لا تريدان حقاً أن ترينى؟

تمتت أنطونيا ووجهها يبيض كزهرة بيضاء:

— "اتركنى يا دون ماكسيمو..."

— لن أتركك — أنت لى — روحك لى — ما أعشقه ليس
جسدك، فالأكيد أن الموت سيدركه. انظرى فى عينى، اتركيهما
تعترفان بأنفسهما لعينى بحبهما. انظرى إلى!

وشدت يده التى فى لون الشمع جونلة أختى حتى مزقتها،
إلا أن العينين البريئتين اعترفتا بتلك النظرات الصادقة
المرتبكة. إننى أتذكره. وقد ظللت أبكى ليلتها فى الظلمة، كما لو
أن أختى قد انخطفت من بيننا.

(٩)

واصلت استذكار دروس اللاتينية فى تلك الصلاة التى
تغطيها رائحة الورود الذابلة. وفى بعض الأيام، فى ساعات

العصر، كانت أمى تدخل كما لو أنها شبح، وتختفى فى غرفة جلوس السيدات، وكنت أستطيع سماع تنهداتها بعمق فى ركن الكنية الكبيرة المكسوة بحرير دمشقى قرمزي، وكنت واعياً لها وهى تتلو صلاتها بصوت خافت. كانت أمى رائعة الجمال، بيضاء شعرها ذهبى، ولم تكن ترتدى ملابسها إلا من الحرير، مع فردة جوانتى سوداء فى يد واحدة، وهى اليد التى ينقصها إصبعان، أما اليد الأخرى، تلك التى كانت تشبه زهرة الكاميليا، فقد كانت مثقلة بالخواتم التى تغطى أصابعها كلها. تلك هى التى نبوسها دائماً، اليد التى كانت تلاطفنا وتربت علينا بها، فى الوقت الذى تكون فيه يدها الأخرى داخل فردة الجوانتى السوداء مخفية بها عادة منديلاً من الدانتيل. وعندما كانت ترسم على نفسها علامة الصليب، وتشرع فى التقديس، لحظتها فقط كانت تظهرها كلها فتكشف عن حزنها البالغ بشدة سوادها على بياض جبينها الناصع، واللون الوردى لشفتيها، وعلى صدرها، صدر سيدتنا العذراء الحانية. كانت أمى تستغرق فى صلاتها بعد أن تندس فى كنية غرفة الجلوس، أما أنا فأستغل فرصة وجود بصيص من الضوء للتسلل من باب الشرفة الموارب، كي أذاكر دروس اللاتينية فى الناحية الثانية البعيدة من القاعة. وفتحت كتاب قواعد النحو فوق واحدة من مناضد تلك الشمعدانات القديمة التى حفرت عليها رسمة لوحة الشطرنج. وفى هذه

القاعة المهيبة باتساعها الهائل، وأبوابها المقفلة التي يرن فيها الصوت عاليًا، تصعب الرؤية. وفي إحدى المرات خرجت أمي من صلاتها طالبة مني أن أفتح باب الشرفة على اتساعه، فأطعتها وأنا ساكت، وانتهزت فرصة أنها أعطتني الإذن بذلك ومضيت لأطل على الفناء حيث فاجأت الطالب وهو يتمشى في عتمة الغروب، وما إن لمحته حتى فاجأني واختفى. استدرت عائداً لمذاكرة درس اللاتيني بصوت عالٍ، وإذا بأحد يدق على باب القاعة. كان ذلك أحد الرهبان من الفرنسيكان، والذي كان عائداً لتوه من الحج إلى الأراضي المقدسة.

(١٠)

الأب برناردو، ولزمن طويل، كان هو من تؤدي أمي أمامه طقس الاعتراف. وعند عودته من الحج لم ينس أن يحضر لها معه مسبحة مأخوذة حباتها من نوى الزيتون في جبل الزيتون. كان طاعناً في السن، ضئيل الحجم، برأس كبير أصلع، ذكرني بثمانيل أولئك القديسين الرومان أعلى رواق الكاتدرائية. وكانت هذه هي المرة الثانية التي يزور فيها بيتنا منذ عودته إلى دير سانتياجو. وما إن رأيته وهو يدخل من الباب حتى تركت مذاكرتي لقواعد النحو وجريت نحوه لأبوس يده، وبقيت راكعاً على ركبتى، متطلعاً إلى أعلى نحوه، منتظراً أن يمنحني بركته. بدا لي أنه قد طلع له قرنان... آى! أغمضت

عينى، مرعوبًا مما يكيد له الشيطان! واقشعر جسمى عندما أدركت أن هذه واحدة من الأعيب الشيطان، الأعيب التى كلمونا عنها ورووها لنا فى قصص الرسل والتى كنت أطلعها بصوت عالٍ أمام أمى وأنطونيا، وهذه إحدى الأعيب الشيطان التى يحرضنى بها لارتكاب المعصية، كما فعل الرجل الذى جاعت حكايته فى سيرة القديس بادوا. أما الأب برناردو، وهو من منحه جدتى اسم: "القديس الذى يمشى على الأرض"، فقد كان غارقًا فى غمرة ترحيب أمى به، حتى نسى أن يمنح بركته برسم الصليب لرأسى الحليق الحزين، بأذنى المتباعدتين جدًا حتى تبدوان وكأنهما ستطيران. رأس الطفل المتقل بسلسلة متصلة من عذابات الطفولة: اللاتينى بالنهار، والخوف من الموتى بالليل. وتكلم الراهب برناردو مع أمى بصوت خافت لا يكاد يسمع، فأشارت إلى أمى بيدها التى فى فردة الجوانتى:

— "اخرج يا ابنى من هنا!".

(١١)

باسيليسا لاجاليندا، الست العجوزة، التى كانت مربية أمى، طأطأت رأسها لتتنصت من وراء الباب، وما إن فاجأها حتى أمسكت بى من ثيابى وشدتنى إليها، ويدها المليئة بالتجاعيد تطبق على فمى:

— "ولا صوت يا مكار!".

حدقت فيها طويلاً لأننى، وبالأغرابية، وجدتها أشبه
بالرعوس التسع المنحوتة، التى تنتهى بها المزاريب البارزة من
جوانب أعلى سطح الكاتدرائية، لكنها، وبعد برهة، دفعتنى
برفق:

— "امش يا ضنايا!".

هزرت كتفى بشدة حتى أخلص نفسى من يدها بتجاعيدها
السوداء من الهباب، لكنى بقيت جنبها حتى أتنصت على صوت
الراهب الفرنسيسكانى:

— "الأمر يتعلق بخلاص الروح...".

إلا أن باسيليوسا عادت لتدفعنى بعيداً عنها:

— "امش لأنك لا يصح أن تسمع شيئاً...".

وانحنيت بشدة لتضع عينيها فى فتحة الباب الضيقة، أحنيت
رأسى جنب رأسها، ولحظتها قالت لى الكلمات ولم تزد:

— "إياك أن تذكر شيئاً مما تسمعه الآن يا مكار!".

اندفعت أكتم الضحك، فقد بدا لى رأسها رأس مزاراب
حقاً، ولم أستطع معرفة ما إذا كان رأس كلب، أم قط، أم ذئب.
لكنه كان بنفس الهيئة الغريبة لأشكال تلك الحيوانات الحجرية

البارزة الممتدة بطول الكورنيش المحيط بسطح الكاتدرائية
والمطلّة على فنائها.

(١٢)

كان صوته فى الصالة عالياً ومسموعاً واستغرق وقتاً
طويلاً، صوت الراهب الفرنسيسكانى:

— "اليوم، حضر إلى ديرنا فى الصباح شاب أصابه مس
من الشيطان، وكلمنى عن سوء حظه الذى لاقاه فى حبه، وأنه
هالك وما من مخرج له، ولم يجد أمامه إلا اللجوء إلى السحر
السفلى الأسود، وفى منتصف الليل، وعندما لجأ للشيطان ليعينه
بقدرته، ظهر له الشيطان وسط أرض الرماد الهائلة الاتساع،
والتي تجتاحها دمدمة الأعاصير التي تثيرها أجنحته الشبيهة
بأجنحة الوطواط الهائجة تحت النجوم".

سمعت أمى تتنهد وهى تتوسل:

— "آى يا ربى!".

واصل الراهب كلامه:

— "حدثه الشيطان واستجاب له على أن يعقد معه اتفاقاً
سيلقى به السعادة فى حبه. لكن الشاب ارتاب فى الأمر، فهو
مسيحى، ومثلما يجرى للمسيحيين، فقد تم تعميده وتقدس بماء

المعمودية، فأبعد الشيطان بعد أن رفع الصليب في وجهه ليحميه منه. وفي هذا اليوم، استيقظ مبكرًا في الفجر وحضر إلينا في الدير، وفي حرارة سر الاعتراف، اعترف لي بكل شيء. ونصحته أن يرجع عن أعماله الشيطانية، إلا أنه لم يرتدع، ويبدو أن نصيحتي له لم تكن كافية لإقناعه أن روحًا ستورد نفسها موارد الهلاك بهذه الطريقة".

ومرة أخرى تعالى صوت أمي وهي تدمدم:

— "سأفضل الموت لابنتي!".

واصل الراهب كلامه وهو يبوح لها بالسر المروع:

— "لو أنها هي التي ماتت، فهذا قد ينقذه من الجحيم، أما إن بقيت على قيد الحياة، فقد يهلك الاثنان. وقدرة سيدة مسكينة مثلك لا تكفي للوقوف أمام قدرة سحر الأبالسة...".

تتهنئت أمي باكية:

— "ولكن ببركة الرب!".

وسادت فترة سكون طويلة، ويبدو أن الراهب كان مستغرقًا في الصلاة، طالبًا الخلاص والتوصل إلى حل.

ضمتني باسيلييسا لاجاليندا بقوة إلى حضنها، وعندما سمعنا وقع خطي الراهب بخفيه، خفت الست العجوزة من

ضغطها علىّ، واستعدت لى نقوم ونهرب، إلا أنها ظلت ساكنة، مرهفة سمعها لصوت الراهب حتى علا بعد ذلك:

— "لكن بركة الرب لا تفيض علينا دائماً يا ابنتى، إنها كالينابيع تفيض وتجف. وهناك أرواح تفكر فى خلاص نفسها فقط، ولا تحمل المحبة أبداً لخلاص المخلوقات الأخرى. إنها ينابيع جفت. قولى لى: ما الذى يهيك أكثر ويحتل قلبك عندما تعرفين أن روحاً مسيحية معرضة للهلاك؟ وما الواجب الذى لا بد أن تقومى به من أجلها كى تحولى دون أن يتم عقد هذا الاتفاق الأسود مع قوى الشيطان؟

تكرين عليه ابنتك حتى ينالها بأيدي الشيطان؟!".

وصرخت أُمى:

— "يسوع تقدس اسمه هو أكبر معين لى!".

وردّ الراهب عليها بصوت يتفجر بالغضب:

— "علينا أن نكون عادلين فى محبتنا بالتساوى للمخلوقات كلها، المحبة للأب، وللأبن، وللزوج. محبة لكل الكائنات المخلوقة من الطين، وبدون أن تعرفى، وببيدك السوداء أيضاً، تهينين الصليب، تماماً مثلما يفعل الطالب بريثال".

. ولا بد أنه كان يشوح لها بيديه الممتدتين نحو أمى، إذ بعدها سمعنا صوت دبيب قدميه كما لو أنه يبتعد ويغادر البيت. فجرينا وهربنا، باسيليسا وأنا معها. ورأينا ونحن نجرى قطعة سوداء تتجاوزنا، أما الأب برناردو الراهب فلم يشاهده أحد عند خروجه. وعندما ذهبت باسيليسا عصر ذلك اليوم نفسه، عادت لتحكى لنا أنه فى بعثة تبشيرية، تبعد عنا عدة فراسخ.

(١٣)

كم تواصل المطر وهو يلطم زجاج الشبابيك، وكم كان ضوء الشمس مثيراً للحزن فى عصر ذلك اليوم، بل فى غرف البيت كلها!

جلست أنطونيا تطرز بجانب الشرفة، وأمنا مضطجة على الكنبه وهى تحقق فيها بتلك النظرة المثبتة عليها، كما تنظر الساحرة التى تظهر فى صورة بعيون زجاجية. ران صمت ثقيل على أرواحنا. وكل ما كان يمكننا سماعه ليس إلا صوت بندول الساعة. وفجأة توقفت أنطونيا عن التطريز: الإبرة سكنت فى يدها، وهى شاردة كما لو أنها تحلم. كانت أمى بعيدة هناك فى قاعة الجلوس، تنهداتها تتوالى بلا انقطاع فى تحسر، ورموش أختى تطرف بشكل خاطف مرتبك كما لو أنها فجأة أفاقت من نومها. وساعتها أخذت كل الأجراس تدق من كنائس عديدة فى

وقت واحد. ودخلت علينا باسيليسا بالشموع فى يدها ثم أخذت تطوف بأنحاء البيت لتطمئن بنفسها على غلق الأبواب كلها، وخلف مصاريع الشبابيك ثبتت دعامات خشبية. وعادت أنطونيا لشرودها مرة أخرى وهى منحنية على شغل التطريز. نادتنى أمى بإشارة من يديها، رحت لغاية عندها حيث كانت ترقد. شدتنى من يدى إلى جانبها وأخذتنى فى حضنها بينما أتت باسيليسا بمغزل الصوف وقعدت على الأرض جنب الكنبة. وسمعت أمى تقف وأسنانها تصطك كالصناجات، فركعت باسيليسا على ركبتيها وقربت وجهها منها محمقة فيها بينما أمى تبكى وتولول:

— "هنا قطة تحت الكنبة، وها هى تخربش بمخالبها! اطردها!".

انحنى باسيليسا بشدة ومالت برأسها حتى أسفل الكنبة:
— "أين هى القطة التى تحت الكنبة؟ أنا لا أرى قطط!".
— "إذا فأنت لا تسمعيتها؟".

خبطت المرأة العجوز بمغزلها على الأرض وقالت:
— "أبدا... أنا لا أرى أية قطط هنا".

صرخت أمى:

— "أنطونيا!... يا أنطونيا!"

— "ما الذى تريدينه يا سيدتى؟"

— "ما الذى تظنينه أنت؟"

— "لا شيء يا سيدتى!"

— "ألا يمكنك سماع القطة وهى تخربش بمخالبها؟"

واصلت أمى ارتعادها:

— "إنها تخربش عند رجلى، ولكنى لا أستطيع رؤيتها".

واشتد ضغط يديها على كتفى. وحاولت باسيليوسا أن تجلب ضوء الشمعة المشتعلة إلا أنها انطفأت بين يديها والعاصفة تقاجئها مجتاحة الأبواب التى تتخبط كلها، وعندئذ، وبينما كانت أمنا تواصل صرخاتها محاولة أن تسيطر على أختى بكلام متناثر لا صلة له بما يجرى، حملت الست العجوزة غصن زيتون فى يدها وأخذت ترش به الماء المقدس فى الأركان كلها.

(١٤)

دق جرس الباب، فانسحبت أمى إلى غرفة نومها، وجرت باسيليوسا لترد، بينما فتحت أنطونيا الباب المؤدى إلى الشرفة وهى تشخص ببصرها للخارج باتجاه الساحة بعينى السائرة فى نومها. لكنها ارتدت راجعة للوراء عدة خطوات ثم اندفعت

جارية إلى خارج البيت. تسمرت، متروكة وحدي، ولبثت ضاغطاً جبيني على زجاج باب الشرفة، أرقب شمس الغروب ونورها يخبو، ثم ينطفئ. وخيل لي أنني أسمع صرخات تعلو من داخل البيت، وصوت الصرخات يصل عندي، لكنني لم أجرو أن أتحرك من مكاني، وتملكني إحساس غامض مسيطر بأن الصرخات تتطلق بسبب غرض ما، ولأنني طفل، فلا ينبغي لي ولا يصح أن أعرفه، ولهذا السبب لم أتحرك من داخل الشرفة، في الوقت الذي كان خوفي، خوف الطفل، يسيطر على تفكيري وقد شوشت عليه العتمة. ثم إن الذكريات المشحونة بالهموم يزيدها النضج المبكر للأطفال وهم يفتحون أعينهم باتساعها على ما يجري حولهم، وقد تركوا ألعابهم ليسترقوا السمع لأحاديث النسوة العجائز. وشيئاً فشيئاً خفت صوت الصرخات في البيت، وعندما ساد السكون طرت جرياً من قاعة الجلوس، وأثناء اندفاعي في الطريقة قابلت لاجاليندا التي قالت لي بصوت خافت وهي تحذرنى:

— "لا تحدث صوتاً يا ضناي. يا مكار!".

شببت على أطراف أصابع قدمي أمام غرفة نوم أمي، والباب كان موارباً، ومن خلاله تنهت إلى التأوهات من الآلام التي تعانيها، ورائحة الخل النافذة. دخلت من الباب الموارب، دون أن أحدث صوتاً. كانت أمي في فراشها وقد تكومت فوق

رأسها مناديل كثيرة مبللة بالخل. وفي تضاد مع بياض الملاءة يرقد بروفيل كف يدها في فردة الجوانتى السوداء، وعيناها المفتوحتان. وبينما كنت أدخل أدارت عينيها تجاه المدخل دون أن تحرك رأسها:

— "اطرد يا بنى هذه القطعة بعيداً عن رجلى".

اقتربت منها أكثر، فإذا بقطعة سوداء تقفز الى الأرض وتجرى خارجة، وباسيليسا لاجاليندا التى كانت تقف فى المدخل، تراها أيضاً، وتقول إننى قدرت أن أخوف القطعة وأجعلها تفر هاربة لأن قلبى طاهر.

(١٥)

أتذكر أمى، وكما لو أن ما جرى قد حدث خلال يوم واحد طويل، فى الضوء الكابى للغرفة التى لا تدخلها الشمس بشبابيكها المغلقة عادة، وقد جلست فى كرسيها ذى المساند ساكنة، وذراعاها متقاطعتان على صدرها، والمناديل المبللة بالخل مكومة على رأسها ووجهها قد ابيض تماماً ولم تكن تنبس بحرف واحد. وما إن يفعل الآخرون ذلك، أى ما إن يبدأوا فى الكلام حتى تدير عينيها وتفتحهما على اتساعهما وتجبر الجميع على أن يصمتوا. كان ذلك الزمن يوماً طويلاً واحداً يستحيل أن تكون له ساعات. كان يوماً بلا مواقيت، إذ كان اليوم كله أقرب

إلى أوقات الشفق، أو أقرب إلى أن يكون زمنًا في الظل، وفي يوم من تلك الأيام التي تحل نهاياتها عندما يحضرون المصابيح ويحملونها إلى غرف النوم، فاجأتنا أمي بصرخاتها:

— "القطة!... القطة!... احملوها من فوقى... إنها راكبة فوق ظهري!".

جاءت باسيلييسا لاجاليندا بسرعة واندفعت نحوى ووجهها يخفى نواياها غير المفهومة لى. دفعتنى ناحية أمي ثم قرفصت وهمست فى أذنى وذقنها باللغد ترجف بينما كانت شامتها ذات الشعيرات الكثيفة تحنك بوجهي:

— "اجعل يدك على شكل صليب. أخذتنى باسيلييسا من يدى اللتين على شكل صليب، ووضعتهما على ظهر أمي، وبعدها سألتنى وهى تهمس بصوتها:

— "بم تحس يا ضنايا؟".

أجبتها وأنا أموت من الخوف ومن همس صوتها نفسه:

— أنا لا أحس بشيء يا باسيلييسا".

— "ألا تحس كما لو أن نارًا موجودة هنا؟".

— "أبدًا. لا أحس بأى شيء يا باسيلييسا".

— "ولا بأى شيء".

صرخات أمى أرعبتنى، ووجدتنى أنفجر باكياً، فأخذتنى
باسيليسا فى حضنها وحملتنى إلى الطريقة.

— "لا بد أنك ارتكبت خطيئة يا ضنايا. يا مكار، لأنك لم
تستطع أن تطرد الشيطان". قالت ذلك ثم رجعت إلى غرفة أمى.

ظللت مكاني بالطريقة مرعوباً وبى ألم لا يطاق، بينما
أحاول تذكر خطاياى الطفلية، تلك التى ارتكبتها. واستمرت
الصرخات التى تأتىنى من غرفة أمى، والخدم يحملون المصابيح
والشموع المضاءة ويوزعونها على كل ركن من أركان البيت.

(١٦)

بعد ذلك، انقضت الليلة بالطول نفسه، وبالمصابيح التى
تتوهج أمام الخيالات، الأحاديث التى تدور بأصوات خافتة يرن
صداها فى فراغ الأبواب التى يعلو صريرها كلما فتحوها. أما
أنا فقعدت فى الطريقة جنب ترابيزة فوقها شمعتان مضاءتان،
وأخذت أفكر، أستعيد حكاية المارد جولياث.

ومرت بى أنطونيا وهى ترفع منديلها إلى عينيها،
وسألتنى بصوت مبحوح لا أكاد أسمعه:

— "ما الذى تفعله هنا؟".

— "لا شىء".

— "ولماذا لا تذاكر؟".

نظرت إليها فى اندهاش من السؤال، تسأله فى الوقت الذى ترقد فيه أمى مريضة وأنطونيا تمشى مبتعدة عبر الطريقة، فعدت أتذكر حكاية ذلك المارد عابد الأصنام الذى وقع ميتاً من ضربة حجر واحد. ولم يكن يبسطنى مهارة رمى الحجارة بالمقلع، التى اشتهر بها الولد داود. وبحماس، نويت أن أدرب نفسى عليها عندما أخرج للتمشية على شاطئ النهر. وكانت لدى فكرة غامضة وخيالية، تلح على أن أصوب أحجارى إلى الجبهة الشاحبة المصفرة للطالب الذى أتى إلينا، قادمًا من بريثال. وعادت أنطونيا وهى تحمل مجمرة البخور، ومنها ينبعث دخان احتراق أوراق اللافندر الجافة الممتلئة بها، لتدور بها وتبخر البيت.

— "ولد!... لماذا لا تذهب لتنام فى سريرك؟".

ومرة أخرى أسرع جاريًا عبر الطريقة. لم أذهب إلى سريرى، بدلاً من ذلك، رحت فى النوم، ورأسى مسنودة على الترابيزة.

(١٧)

لم أعرف إن كانت ليلة واحدة تلك التى مرت أم أكثر، لأن البيت كان غارقًا فى ظلمة بلا نهاية. والشموع لا تكف عن

الاحترق أمام الأيقونات، وما أذكره أننى، وفى قلب أحلامى، سمعت صرخات أمى والأحاديث الغامضة للخدم وصرير الباب والجرس الصغير الذى يقرع كما لو أنه يعبر الشارع. وباسيليسا لاجاليندا كان عليها أن تأتينا بالشمعدان فتحمله وتمضى به منطفئاً، لتعود به ثانية، بشمعتين جديدتين ينبعث ضوءهما بالكاد. وحدث مرة أن رفعت رأسى من فوق الترابيزة، فرأيت رجلاً يلبس قميصاً بكمين، جالساً أمامى وهو يخيظ. كان ضئيل الحجم بدرجة مذهلة، بمقدمة رأس صلعاء، وقميص تحتانى أحمر غامق. حيانى وهو يبتسم لى:

— "أكنت نائماً أيها التلميذ الصغير؟".

وجاءت باسيليسا وأزالت الجزء المحترق من الشمعة، ثم سألتنى:

— "ألا تتذكر يا مكار أخى... ألا تتذكره يا ضنايا؟".

وفى ضبابية الحلم تذكرته. إنه خوان دى ألبرتى. كنت قد رأيته عدة مرات عندما أخذتني الست العجوز فى صحبتها إلى برج الكاتدرائية. كان يخيظ فى حجرة من حجرات السطح تحت رواق البواكى، وكان يرقع ثوباً لأحد القسس. تنهدت لاجاليندا:

— "إنه هنا ليرسل خبراً للقائمين بالخدمة فى الكاتدرائية لتجهيز قاعة الصلوات". انفجرت باكياً، إلا أن العجوزين كليهما

نبهانى أن أبقى ساكنًا. وكان باستطاعتنا جميعًا أن نسمع أمى
وهى تواصل صراخها:

— "أنا مرعوبة من هذه القطة!... أبعدوا هذه القطة
عنى!".

صعدت باسيليسا إلى غرفة نومها فى السطوح ثم ظهرت
ثانية ممسكة بصليب من الخشب الأسود. غمغت بكلام قليل
وغريب، ورسمت فى الأول، علامة الصليب على صدرى
وعلى ظهري وجانبي ثم حولي، وبعدها أعطتني الصليب ثم
التقطت مقص أخيها، مقص الخياطة الكبير الذى يعلوه الصدا،
والذى يصدر صريرًا عاليًا كلما انفتح حداه، وقالت:

— "علينا أن نخلصها مادام هذا هو طلبها".

وسحبتنى من يدي ومضت بى حتى غرفة نوم أمى حيث
كانت صرخاتها تتعالى بلا انقطاع:

— "أنا مرعوبة من هذه القطة!... أبعدوا هذه القطة عنى".

وعلى العتبة وقفت باسيليسا وأمرتني بصوت خفيض:

— "اطلع بمنتهى الخفة فوق السرير، وحط الصليب فوق
مخدتها. أما أنا فسانتظر هنا فى مدخل الباب".

خطوت داخل غرفة النوم حيث كانت أمى قاعدة على قزعا وشعرها منكوش، وقبضتها ميسوطتان بأصابعهما المفرودة الأقرب إلى المخالب، ويداه واحدة سوداء والأخرى بيضاء. نظرت إليها أنطونيا ووجهها يصفر، بينما تتمتم فى ضراعة. درت حول فراشها الناحية الأخرى، وأمامها رأيت عيني أختى سوداوين وغائرتين، وما من دمة تلوح فيهما، ودون أن أحدث أية ضوضاء، صعدت فوق السرير، وحططت الصليب على المخدة فى الوقت الذى كانت باسيليستا تقعد منكمشة فيه هناك على عتبة الباب. ولبرهة واحدة فقط، لمحتها وهى تزحف ببطء فوق السرير، إذ إننى ما كدت أحط الصليب فوق المخدة حتى أخذت أمى تتأوه من الألم، وقطة سوداء تفر من بين أغطية السرير وتتدفع جارية باتجاه الباب. أغمضت عيني بشدة، وسمعت بعينين مغمضتين صوت مقص باسيليستا. وبعد ذلك جاءت الست العجوز إلى السرير حيث كانت أمى تتلوى من الألم وحملتني فى حضنها ومشيت بى حتى خارج الغرفة. وفى الطريقة، وبالقرب من الترابيزة التى كان يتناول خلفها ظل الخياط القزم، كشف ضوء الشمعتين بوضوح عن الأذنين المقصوصتين السوداوين، يداه قد تلطختا بالدم، مشيراً إليهما، إنهما أذنا القطة. ثم أحكم الرجل العجوز وضع غطاء

رأسه، ومضى ليستدعى القسيس من صومعته ليقم لها الطقوس الأخيرة بعد مسحها بالزيت المقدس.

(١٨)

كان البيت خانقاً برائحة الشموع الموقدة وهمهمات الناس وهم يتلون صلواتهم، والقسيس يهرول فى عجلة من أمره، مرتدياً ملابسه الكهنوتية ليتخذ فى النهاية وضعه الساكن بإحدى يديه المضمومة بالصورة الجانبية لها، فوق شفتيه، فى الوقت الذى كان خوان دى ألبرتى قد أفسح له الطريق ليمر منه عبر الأبواب. وكان الخياط، برأسه المائل على ناحية، يسير قدماً فى خط مستقيم، مهيباً، أقرب إلى أن يكون قزماً، يحكم حبك عباؤه حول جسمه، ويخلع غطاء رأسه ويحيى بإصبعين بطريقة مبالغة فى التهذيب، تشبهاً بأبناء الطبقة الراقية. ومثلما يسلك رجال الأعمال فى المواكب، والجمع خلفهم يتحرك ببطء وتجهّم، مردداً صلواته بأصوات أكثر خفوتاً، وفى قلب الحجرات، اصطفوا ومضوا من باب لباب، مشكلين الطابور الذى تحرك متجهاً إلى الأبواب المفتوحة المفضية إلى غرفة نوم أمى. أما أنطونيا ولاجاليندا فقد انكبتا فى الداخل تخيطان لها الأوشحة والأغطية، بينما كانتا تحملان بأيديهما الشموع الرفيعة. وشعرت بنفسى مع اندفاعى للأمام تحت ضغط الأيدى التى تبرز من العباءات وتعيق الحركة وهى تطول وتقصّر، قابضة على الصليبان فى

مسابحها. كانت الأيدي بتجاعيدها الكثيرة للنسوة العجائز اللواتي يصلين وهن واقفات في صف بطول الحائط، بينما الحدود الخارجية لظلالهن تضخم حجم أجسامهن إلى درجة مهولة. أما في غرفة نوم أمنا، فكانت هناك الندابة، امرأة بمنديل معطر، وهي التي كانت واقفة بثيابها الأرجوانية الزاهية كزهرة داليا، وقفت بعباءتها المنتسبة لبلدة الناصرة بفلسطين، وأخذتني من يدي وركعت، وركعت معها، وساعدتني في الإمساك بشمعة رفيعة، وأخذ القسيس يطوف حول سرير أمي وهو يتمتم باللاتينية التي كان يقرأها من كتابه. وبعد ذلك رفعوا الأغطية، ورأيت قدم أمي المتصلبة المصفرة، فتأكدت لحظتها من أنها ميتة. وبقيت ساكنة في حضن السيدة الجميلة وبشرتها البالغة البياض والاحمرار. ولم أكن من شدة رعبى بقادر لا على الصراخ، ولا على الإتيان بأية حركة. بين ذراعي تلك السيدة البيضاء المتوردة، التي مالت على بجانب وجهها لصق خدي، وساعدتني في (حمل) شمعة الجنازة.

(١٩)

جاءت لاجاليندا لتتزعني من بين ذراعي تلك السيدة، وأخذتني إلى حافة السرير حيث كانت أمي لا تزال في مكانها عليه، متخشبة ولونها مصفر، ويداها متكورتان بين طيات

الملاءات. رفعتنى باسليسا من فوق الأرض حتى أتطلع جيّدًا
فى ذلك الوجه الشمعى:

— "قل لها وداعًا يا ضناى، قل لها وداعًا يا أمى، و...
وداعًا ولن أراك بعد ذلك!".

ثم أنزلتنى العجوز وأوقفتنى على الأرض لأنها تعبّت،
وبعد أن استردت أنفاسها، عادت لتحملنى وتسندنى من تحت
إبطى بيديها المعروقتين كحاء جذع العنبة:

— "تطلع فيها كثيرًا، واحفظ صورتها لتذكرها عندما
تكبر... وأعطها بوسة يا ضناى!".

وجعلتنى أنحنى فوق وجه الميتة. وهكذا لمست الرموش
الواقفة التى لا تنتهى فأخذت أصرخ متشبثًا بذراعى لاجاليندا،
لائدًا بينهما، لكن، فجأة، ظهرت، وبشرها المنكوش، أنطونيا،
فى الناحية المقابلة من السرير.

انتفضتُ غاضبًا على الخادمة العجوز، فشددتنى أنطونيا
إلى صدرها وهى تنخرط فى النسيج وتختنق بالدموع، وتحت
قبلات أختى الممتلئة بالأسى، وتحت نظراتها بعينيهما المحمرتين،
امتلأت إحساسًا بفجيرة لا حد لها. لقد تحولت ملامح أنطونيا إلى
ملامح جامدة، ووجهها يحمل تغبيرًا عن ألم فظيع، معاند. إنها
تبدو الآن وكأنها فى عالم آخر. وتعود لتبوسنى وهى تنهشه

باكية، ثم سرعان ما تحيطنى بذراعيها ثم تضحك، وتضحك، وتضحك... حتى أسرع سيدة فخلعت منديل رأسها وأخذت تهوى عليها، بينما أسرع أخرى بعينين مرعوبتين، تنزع غطاء زجاجة عطر وتقدمها لها، وثالثة أسرع داخلية علينا بكوب ممتلئ بماء يترجرج فوق صينية من المعدن.

(٢٠)

لُذْتُ بركن من أركان البيت غارقاً فى ألم جعل ذهنى مشوشاً، لأن الألم كان يندفع فى شرايين صدغى بعنف دوار البحر وانخرطت لأوقات طويلة فى البكاء، وفى أوقات أخرى كان ينسينى بكائى أننى كنت أواصل سماع انخراط الآخرين فى البكاء.

ولا بد أن الوقت كان يقترب من منتصف الليل عندما انفتحت ضلفتا الباب على مصراعيهما وارتعشت فى قلب القاعة أنوار الفتائل المشتعلة للشموع الأربعة. كانت أمى لا تزال فى كفنها داخل تابوتها الأسود عندما دخلت القاعة دون أن أحدث صوتاً وقعدت على أرضية الشباك المفتوح. وحول التابوت كانت ثلاث سيدات ساهرات ومعهن شقيق باسيلييسا، ومن وقت لآخر، كان الخياط يهب واقفاً ليبصق فى أطراف أصابعه، ويزيل ما احترق من فتائل الشموع المشتعلة. ذلك الخياط

القصير الكريم، بالصدى الأحرر الغامق، الذى لا يقل مهارة
عن الحاوى فى التقاطه ما احترق من فتائل الشموع المحترقة،
وتكويره لخديه بالهواء الذى ينفخه فى أطراف أصابعه ليبردها.
وظللت أصغى لحكايات السيدات، وشيئاً فشيئاً توقفت عن البكاء.
أما حكاياتهن فكانت تدور حول العفاريث وعن ناس مدفونين
وهم أحياء.

(٢١)

مع طلوع النهار أتت ودخلت علينا فى غرفة النوم سيدة
فارعة الطول، بعينين سوداوين وشعر أبيض بلون الثلج وباست
أمدى فوق عينيها المسبلتين دون أن تخشى برودة الموت
فتراجع، ودون أن تدمع عيناها. بعدها ركعت السيدة بين
شمعتين، ثم غمرت غصن الزيتون فى إناء الماء المقدس
وأخذت تهزه وترش به قطرات الماء فوق الجسد المسجى.
ودخلت باسيليوسا وعيناها تتفرسان فى أنحاء الغرفة بحثاً عنى.
وأومأت لى وهى تشير بيدها إلى السيدة:

— "شفت جدتك يا ضنايا؟".

كانت جدتى! ولقد أتت من بيتها فوق الجبال إلى هنا، فى
سانتياجو، أتت قاطعة سبعة فراسخ فوق بغل. وسمعت فى تلك
اللحظة ضربات حوافر فوق أرض الساحة المبلطة بالحجر،

حيث كان البغل مازال مقيدًا. ووضح صوت حوافره أقرب إلى
الصدى فى جوف هذا البيت الغارق فى النحيب.

ونادت علىّ أختى أنطونيا من الباب:

— "ولدا! يا ولدا!".

خرجت بهدوء شديد كما أكدت الخادمة العجوزة وهى تلح
علىّ. وأمسكت أنطونيا بيديّ، وأخذتني إلى أحد الأركان وقالت
لى:

— "هذه السيدة هى الجدة. ومن الآن ولسنين قادمة سنعيش
معها".

وأنا همست:

— "ولمَ لم تُبْسنِي؟".

وبقيت أنطونيا ساكّنة لبرهة وهى تفكر وتدعك عينها:
— "أنت أهبل! كان عليها فى الأول أن تصلى من أجل
ماما!".

أخذت صلاة جدتى وقتًا طويلاً، وفى نهاية الصلاة قامت
واقفة وهى تسأل عنا. ومن يديّ، سحبتنى أنطونيا وأخذتني
إليها. كانت جدتى تحط طرحة سوداء فوق شعرها المجمع
الفضى بأكمله، حتى ليبدو وكأنه يزيد سواد عينيها بريقًا.

ولبرهة، احتكت خشونة أصابعها بخدى، لكنى ما زلت
أذكر الإحساس الذى تركته يد القروية تلك، بغلظتها وافتقارها
للنعومة. وتكلمت معنا بلهجتها الريفية:

— "أمكما ماتت. ومن الآن، فالأم التى ستكون لكما هى
أنا. وليس لكما فى الدنيا أحد آخر يحافظ عليكما. وسوف
أخذكما معى لأن هذا البيت سيغلق. وغداً وبعدما ننتهى من
القداس سننتدبر أمر سفرنا".

(٢٢)

وفى اليوم التالى أغلقت جدتى البيت بالفعل، وبقينا على
السكة لنأخذ طريقنا إلى سان كلمينت دى برانديسو. كنت فعلاً
فى الشارع، راكباً فوق بغل أحد ساكنى الجبال، والذى جعلنى
أركب أمامه على مقدمة السرج، وسمعت فى البيت صوت خبط
إغلاق الأبواب والصراخ يتعالى بحثاً عن أختى أنطونيا. لكن لم
يمكنهم العثور عليها. وبوجوه يعصف بها الفرع، اندفعوا إلى
الشرفات لبرهة واحدة فقط، ليرتدوا بعدها مندفعين فى جريهم
بين الغرف الخالية حيث كانت الريح تخبط الأبواب بعنف
فتخلوا أصداً صريرها كما لو أنها تصرخ من أجل أختى.
ومن بوابة الكاتدرائية اكتشفتها واحدة تقيّة ممن تقمن بالخدمة،
وهى خائفة القوى فوق السطح. نادينا عليها ففتحت عينيها فى

النور الوهاج لشمس الصباح، مفزوعة كما لو أنها تستيقظ من حلم مشئوم. ولكي ننزلها من فوق السطح أخرج لنا واحد من خدام الكنيسة بلباس قسيس، لكن دون سترة، سلماً طويلاً لهذا الغرض. وعند انصرافنا، كان هناك في الفناء طالب بريثال يقف بعباءته التي تتلوى من الريح، واضعاً على وجهه ضمادة سوداء. وخيل لي أنني ألمح تحتها البقايا الدامية للأذنين المقصوصتين المقطوعتين من أصلهما.

(٢٣)

في سانتياجو بإقليم جليقية، وكما وجدت، بقيت واحدة من أماكن العبادة المقدسة في العالم، وأرواح أهلها لم تزل محتفظة بعيونها مفتوحة على النبا العظيم.

بشكل غامض

يوجد فى العائلة شيطان أيضاً! وأذكر، عندما كنت صغيراً، أن الليالى كلها كانت تنقضى فى جلسات سمر مع جدتى، التى كانت كبيرة فى السن وتعرف هذه الأمور المرعبة المزعجة التى تأتى بشكل غامض. وكانت هناك سيدة من أصول شريفة، وتقية، وكانت تسكن فى قصر كبير فى شارع روا دى لوس بلاتيروس. أذكر أنها كانت تقضى الساعات وهى تتسج بشغل الإبرة جوارب طويلة خلف الضلف الزجاجية لبلكونتها وبصحبته القط الراقد على جونلتها، دونيا سوليداد أمارنته، كانت فارعة الطول، رهيفة، سريعة القلق؛ بشعرها الأسود الفاحم الذى تتخلله خصلات بيضاء، ووجنتاها جلد على عظم، تلك الوجنت التى تعبر عن معاناتها، إذ تبدو يتيمة محرومة من القبلات والمداعبات. وقد أثارت تلك السيدة فى نفسى رعباً غامضاً حين حكّت لنا أنها فى سكون الساعات المتأخرة من الليل سمعت طيران أجنحة أرواح الذين ماتوا، وانبعثت من داخل المرايا ملامح الوجوه الضاربة إلى الزرقة والتى تطل بعيون معذبة. لا، لن أنسى أبداً الانطباع الذى سببته لى عندما رأيته وقد أتت فى أول الليل، وجلست على إحدى الكنبتين فى حجرة الضيوف التى لجدتى، ومدّت للحظة فوق جمرات المدفأة

يديها الشبيهتين بجذع شجرة العنب وفروعها، وأسرعت بإخراج جورب طويل من كيس قطيفة قرمزي وأخذت تشتغله. ومن وقت لآخر تتخرط في البكاء، وقد اعتادت أن تواصل الندب:

— آى، يا يسوع!

و ذات ليلة جاءت إلينا وكنت راقداً بين النوم واليقظة فى حجر أمى، وبالرغم من ذلك فقد شعرت بتقل نظرتها المغناطيسية عندما نظرت إلىّ، ولا بد أن أمى أيضاً انتبهت إلى الشر الكامن فى هاتين الحدقتين بلونهما الفيروزي الرصاصى السام لأن ذراعيها عذبانى وضيقاً على الخناق بشدة. وأخذت دونيا سوليداد قعدتها على الكنب، وبصوت خافت جعلت تتكلم مع جدتى. أحسست بالتنفس اللاهث لأمى التى كانت ترقبها وبها رغبة شديدة فى أن تخمن بالكاد ما الذى تقوله، وما إن دقت الساعة السابعة حتى مررت جدتى منديلها على عينيها، وبصوت يفتقر إلى الإحساس بالأمان إلى حد ما، قالت لأمى:

— لماذا لا تقومين وتنومين هذا الولد؟

رفعتنى أمى بين ذراعيها وحملتنى ومشت بى إلى الكنب لكى تقبلنى السيدتان، ولم أشعر أبداً بمثل هذا الرعب الحى الذى شعرت به من دونيا سوليداد وهى تمر بيدها، يد المومياء، على وجهى وتقول لى:

— كم تشبهه!

وغمغت جدتي وهى تقول لها:

— صلّ من أجله، صلّ من أجل ابني!

كانتا تتكلمان عن أبى، الذى كان فى السجن لأنه من أنصار الأمير المُدَّعى بالحق فى العرش وفق الدستور، فى سجن سانتياجو، وأنا أرغب فى أن أخفى وجهى فى كتف أمى التى احتضنتنى بقوة وكسا وجهها حزن:

— مسكين يا ابننا!

بعد أن هدأتى بقبلاّتها، بينما كانت عيناها، هاتان العينان الجميلتان، تفتحهما بشكل مجنون ومأساوى:

— ابن روحى، كارثة جديدة تهددنا!

تركت دونيا سوليداد للحظة الجورب الطويل، وغمغت بصوت بعيد لعرافة:

— فيما يخص زوجك، فلم تحدث له أية مصيبة.

وهمست جدتي:

— اذهبى ونومى الولد.

بكيت وأنا ألف ذراعى حول رقبة أمى متشبّثاً بها:

— لا أريد أن تتوَّمنى! أنا خائف من أن تتركونى
وحدى، لا أريد أن تتوَّمنى!

داعبتنى أمى بيد متوترة حتى إنها، تقريبًا، أَلمتنى ثم
عادت إلى السيدتين تشرح لهما وهى تتشج باكية:

— لا تعذبانى، وقولا لى ماذا جرى لزوجى وأنا عندى
الشجاعة لأعرف كل شىء عنه.

رمتنا دونيا سوليداد بنظرتها، تلك النظرة المؤذية بلون
الرصاص، وتكلمت بصوت يغلفه الغموض، بينما كانت
أصابعها تحرك الإبرتين فى الجورب:

— أى، يا يسوع!... بالنسبة لزوجك فلم يحدث له شىء،
لأبد أن شيطانًا يحميه، لكنه ينزف دمًا...

كررت أمى فى صوت خفيض وعلى وتيرة واحدة كما لو
أن الروح كانت غائبة:

— هل نزف دمًا؟

— لقد هرب هذه الليلة من السجن، قتل السجنان. هذا ما
رأيتُه فى منامى.

كتمت أمى صرخة، وكان عليها أن تجلس حتى لا تقع من
طولها:

كانت شاحبة، لكن كانت فى عينيها بارقة أمل مأساوية،
وبيديها الاثنتين معاً استفهمت:

— هل أنقذ؟

— لا أعرف.

— ألا يمكن أن تعرفى؟

— يمكننى محاولة ذلك.

وهنا ساد الصمت طويلاً. كنت أرتعش فى حجر أُمى
بعينين مذعورتين استقرتا على دونيا سوليداد. كانت الصلاة
تقريباً غارقة فى العتمة. وفى الشارع كانت كمنجة رجل أعمى
تزعق، وجرس كبير للراهبات يدور معلناً بداية التاسوع.

قامت دونيا سوليداد من على الكنبة وظلت تتمشى دون أن
يصدر عن مشيها صوت، ورأيناها وهى تبتعد متجهة إلى داخل
الصالة حيث كان ظلها يتلاشى تقريباً. اطلعت على شىء بالرغم
من أن هيئتها السوداء، وبياض يديها لم يتحركا، وفى علوها،
وبعد قليل أخذت تئن بصوت خافت كما لو أنها تحلم. وأنا، قد
امتألت رعباً، ظللت أبكى وأُمى تضغط على فمى، وتقول لى
بصوت مبحوح وشارد:

— اهدأ لأننا سنذهب إليه. هل تعرف أباك؟

مسحت دموعى بينما واصلت التطلع فى العتمة إلى هيئة
دونيا سوليداد. وبشكل صارم سألت أمى بصوت حزين:

— هل يمكن رؤيته؟

— نعم. لقد مشى فى طريق ملء بالمخاطر، والآن هو
وحيد يمشى وحده فيه، ولا أحد يتبعه... إنه محاصر عند الضفة
الأخرى لنهر ويخاف أن يجتازه، إنه نهر، لكنه يبدو كما لو كان
بحرًا.

— يا سيدتنا العذراء، لماذا لا يجتازه!

— فى الضفة الأخرى يوجد سرب من الحمام الأبيض.

— هل هو فى أمان؟

— نعم. بداخله شيطان هو الذى يحميه. ظل الموت لا
يمكنه أن يفعل شيئاً ضده، والدم الذى بيديه أراه وهو يتساقط
قطرة قطرة فوق رأس بريئة.

ومن بعيد سُمع خبط على الباب، وشعرنا كلنا بأن شخصاً
ما دخل إلى الصلاة، وشعرى وقف، ونفس بارد مس جبهتى،
والذراعان غير المرئيان لشبح يريدان أن يخطفانى من حجر
أمى؛ فضمتنى وهى مرتاعة دون أن تستطيع الصراخ، وفى
العمق الضبابى للمرأة رأيت العينين اللتين لميت، وبدا يظهر
شيئاً فشيئاً اللون الرصاصى المطفأ للوجه بالكفن والخنجر فى

الحنجرة النازفة. ومفروعة رأيتى أمى وأنا أرتعش؛ فضممتى بشدة إلى صدرها، ما أظهرته المرأة كان لى أنا، أما هى فلم تر شيئاً، تركت دونيا سوليداد ذراعيها يسقطان، وعندئذ لم يتحركا من علوهما، ومن الناحية البعيدة للصالة، خرجت من الضباب كما فى حلم، وجاءت نحونا. صوتها، صوت العرافة؛ بدا آتياً أيضاً من بعيد جداً:

— أى، يا يسوع! عينا الطفل فقط هما اللتان رأته. الدم يتساقط قطرة قطرة فوق الرأس البريئة، تائه فى تجواله بظلمته المنتقم للموت، الحياة كلها كانت خلفه، يلقاها فى الخطيئة، عندما يترك العالم ويكون ظلاً شيطانياً لا يمكن أن يغفر. يوماً ما سينزع الخنجر الذى غرسه فى الحنجرة كي يجرح البريء.

عيناى، عينا الولد، احتفظتا لزمان طويل بالرعب الذى رأته عندئذ وحاسة السمع عادت لتشعرنى مرات كثيرة بكوابيس الأشباح التى تمر من جانبي، لا ترحم بشئها، دون أن تترك روى ممثلة كلها بالضيق، كلها مقهورة تحت وطأة أعاصير الحنين والعواطف النقية، بدت خارجة من البرج، حيث الحلم الأسير منذ ثلاثين سنة، وفى هذه الساعة نفسها، أسمع الكوابيس الصامتة للقائد السجان.

فى منتصف الليل

فارس على حصانه وخادمه الذى يرافقه جريًا على قدميه
كانا يندفعان خلال سحابة ترابية، وعلى البعد كانا يبدوان بالكاد
شبحين انفصلا عن الجيش فى الظلام على خلفية دامية للغروب.
الساعة، المكان، الطريق المنعزل، ساعدا على الغموض الذى
أحاط بتلك الأشباح المطاردة، وفى واحد من مفارق الطريق شد
الفارس عنان الحصان ثم أوقفه. ووقف مترددًا بين أن يأخذ
الطريق الذى تسير فيه العربات أو الطريق الذى تسير فيه
الأحصنة والبغال والخادم الذى يجرى قدامه، وقف بدوره وأخذ
يتطلع بالتناوب إلى طريق ثم إلى آخر وسأل:

— إلى أين نحن منطلقان يا سيدى؟

تردد الفارس لحظة قبل أن يقرر، وبعد ذلك أجاب:

— فى الطريق الذى سيكون أقصر.

— الذى سيكون أقصر هو طريق الجبل، لكن بالطريق
العادى نتفادى المرور بالليل فى غابة سنديان الطاحونة... وهى
شهيرة!... والفارس عاودته شكوكه، وبعد لحظة من الصمت
أخذ يسأل:

— ما هى المسافة لو أخذنا طريق الجبل؟

— ستكون حوالى ثلاثة فراسخ.

— وبالطريق العادى؟

— ستكون حوالى خمسة فراسخ.

أطلق الفارس العنان لحصانه:

— إلى الجبل!

ودون أن يتوقف اندفع فى الطريق القديم الذى يتلوى
كالثعبان مجتازاً مناطق قاحلة حيث تنمو بالكاد أعشاب تندر
ضاربة للصفرة. وعلى البعد أسراب متحيرة من طيور الخطاف
تحوم فوق مستنقع سبخى. الخادم، الذى بقى فى الخلف كثيراً
يراقب المشهد للسماء والأفق الرحب حيث تبدو الآن لمسافات
طويلة جداً حمرة الغروب، جرى ولحق بالفارس:

— شُدَّ على الحصان جيداً يا سيدي، إذا شددت عليه
سيكون بإمكاننا بالفعل أن نحظى بضوء القمر عند مرورنا بغابة
السنديان.

وفجأة ضلا الطريق فى منعطف، بين أشجار النخيل التى
تحدد معالم الطريق غير المنتظم للنهر. وأطبق الليل عليهما،
وبدأت الريح تهب على نوبات تعبر سريعة ومرعدة والأشجار

تتحنى فوق الطريق وحفيف متواصل لكل أوراقها. والفارس
وخادمه المرافق قطعاً وقتاً طويلاً فى عمق الظلام لليلة بلا
نجوم. وبالفعل بدأ يحسان بخير المجرى المائى الذى يغذى
الطاحونة والكتلة المظلمة لغابة السنديان، عندما نبه الخادم
بصوت خافت:

— سيدى، خذ حذرِكَ مما يمكن أن يقطع الطريق علينا.

— لا أهمية لذلك.

— ومن الأفضل أن تكون للأمر أهمية. مرة، كان شخص
فى ظرف مشابه، وليس لهذا أيضاً أنا خائف، وفى الجسر نفسه
خرج عليه رجلان وسرقاه ولم يقتلاه بمعجزة إلهية.
— هذه حكايات.

— إنها أكيدة مثلما هو مؤكد أننا جميعاً سنموت!

ظل الفارس صامتاً، وشعرا به وهو يقترب أكثر خريـر
مجرى الماء المحبوس فى مذاود الطاحونة. كان خريراً يسوده
التشتت والغموض الذى سرعان ما جعله يتوهم نباح كلب يتشمم
الموت، كما يبعث عويله إنسان يسلبونه حياته. الخادم جرى
تحت جناح الحصان وهناك فى المنخفض برزت صورة جانبية
معتمة لكنيسة قرعت أجراسها ببطء مع نذر شر من سحابة.
غمغم الفارس:

— نحن الآن بالقرب من بيت رئيس الدير.

وأجابه الخادم:

— ضوء القمر يخدع كثيرًا، يا سيدى.

وفجأة تحركت شجيرات العليق فى مكان متفرقة بقوة،
ووثب شبح فى منتصف الطريق:

— يداك لفوق! محفظة النقود أو حياتك.

شب الحصان، والبريق اللاهب للرصاصة أضاء بوميض
أزرق الوجه الغادر باللحية السوداء للرجل الذى أمسك بشكيمة
اللجام والذى تهاوى وسقط ببطء، انحنى الخادم ونظر إليه
واعتقد أنه تعرف عليه.

— سيدى، يبدو لى أنه تشييان.

— تقول من؟

— ابن الطحان.

— ليغفر الله له!

— آمين!

— هل تعرفه؟

— إنه نفسه شيطان!

كان ممدداً وسط الطريق وممسكاً بيده اليمنى منجلاً.
وكان حافياً وقدماه تبدوان من شمع، والفم محشواً بالتراب،
ولحيته شائطة. خيط من الدم يجرى من الجبهة. والفارس ثبت
نفسه على السرج، ونخس بالمهاميز الحصان، الذى ارتجف،
ووثب عالياً. الخادم تبعه. من أحجار الطريق انبعث الشرر من
تحت حوافر الحصان، والسيد والخادم تاها فى الظلام. وفجأة
اكتشفا الطاحونة فى وضوح من بين فروع الأشجار التى تتضح
فى ضوء القمر. كانت فى مشهد مثير للشكوك وواقعة فى
منعطف. وعلى العتبة كانت امرأة عجوز تجلس وهى تغفو،
تلبس مريلة مما تلبسها القرويات. وجدت فى الانتظار. سألها
الخادم وهو متردد:

— هل يأتى المجرى بماء للطاحونة؟

اعتذلت المرأة العجوز فى جلستها وقد بوغتت:

— الماء لا ينقطع، يا بنى.

— من تنتظرين؟

— لا أنتظر أحداً... خرجت من لحظة لأجلس فى ضوء
القمر. عندى طحين لليل كله وعلى أن أسهر.

— والزوج، أليس موجوداً؟

— ليس موجودًا. ذهب إلى المدينة ليقوم بما عليه للسيدة،
سيدتى التى ندفع لها "قورو" واحدًا عن كل اثنى عشر مكيالاً من
القمح واثنى عشر مكيالاً من الشَّيِّم.

— واللص قاطع الطريق؟

— يمشى فى اللىالى، أمور لصوص! استجدى علاقة مع
بنت من القرية ويفعل معها أفعالاً قبيحة كل ليلة.

— كلام صحيح. أمور لصوص!

— أنا هنا فى انتظاره.

— انتظريه بكل توفيق.

والخادم ابتعد وهو يجرى ليدرك الفارس. لحق به وهو
يلهث بجانب الحصان:

— ألم تحسبنى مخدوعًا، يا سيدى؟

— يبدو أن لا...

— كان هذا ما قلته!...

— والأم تنتظره!...

وصمتا بروحين مرتاعتين ومغلفتين بالغموض.

كانا قد تركا الطريق الذى تسلكه الأحصنة والبغال،
وسلكوا الطريق الذى تسير فيه العربات عندما عبرا مع سائق

بغال، والذي كان نصف نائم فوق بغل وقد لف نفسه ببطانية.
ووجدهما على حافة الطريق. تحدثا معًا السيد والخادم:

— يخرج الناس مبكرًا للسوق...

— لقد عرضنا أنفسنا للخطر بمصادفة سيئة.

— هذا ما فكرت فيه يا سيدي.

— أنت، الآن ستعود بالحصان. أما أنا فساخذ المركب.

— ولو لم تجد هناك شباب الحزب؟

— سأكون، عندها على الأقل، دون رامون ماريّا. ألم أقل
لك ما ينتظرني؟

— هذا ما قلته لي، نعم يا سيدي.

— كم ستكون الساعة؟

— عندما نعبّر القرية تؤذن الديوك ساعتها.

— مازالت هناك ثلاث ساعات من الليل.

— هذا ما سيكون، هل تعرف الطريق؟

— أعتقد أنني أعرفه.

— الأحسن، تجنب ظهورك، سوف نصل إلى الجسر،
وبعدئذٍ سأعود من الطريق العادي، لأنه طريق أكثر أمانًا.

— لا ترد، يا لص.

— أرجوك أن تقتلنى!

— والآن يمكنك أن تجد رفقة.

وأشار إلى راكب البغل الذى صعد الطريق الذى تحوطه
المزارع، حيث ينعكس عليها ضوء القمر.

— يمكننى أن أرتاب!

— تغاضَ عن ذلك. اركب إذا أردت...

أطاع الخادم، وبقفزة واحدة صار فوق السرج وانحنى
لكى يصغى إلى الفارس الذى قلده فى صوت خافت:

— امضِ لتحيا حياتك مطمئناً!

وبذلك دفع له مقابل التخفى، من أجل أن يتركه يمر،
ووضع إصبعاً فوق شفتيه: إلى أن أراك وحدك، ورسم على
نفسه الصليب مخلصاً.

إلى أين يذهب؟ من كان؟ ربما كان لاجئاً سياسياً. وربما
هو زعيم عائد من البرتغال. لكن فى الحكايات القديمة، والطرق
القديمة، لا يمكن أبداً معرفة نهاية لها.

أبو جدى

دون مانويل بيرمودث إى بولانيو، أبو جدى، كان فارساً طويلاً، جافاً، بعينين خضراوين، الصورة الجانبية لوجهه صافية: يتكلم قليلاً، يتمشى وحده، كان مزهواً بنفسه، عنيف، وعادل جداً. أتذكر أنه فى أيام ما، كان بخذه الأيمن طفح وردى سبب له حزناً: عن ذلك الطفح الوردى ناس البلدة تبادلوا الهمس، إنه قُبلة الساحرات. وفى وسط الكلام جاءت لتقول الكلام نفسه عما تى المتزينات بعقدة على شعورهن. الصورة التى احتفظت بها لأبى جدى كانت لرجل عجوز فانٍ ومتعبد، حتى إنه كان يتمشى الليالى الطويلة فى جناح الكنيسة يتأمل كوكبة أبى سيف.

ما أجمل المشاعر التى أحتفظ بها عن تلك الفترة! مرجان مذهب/ كوكبة أبى سيف هو اسمك، القداسة لك يا مريم ولك المجد!. أبى سيف كنيسةك بعش طيور السنونو!، مذهبة أحجارك! كل ما لك ذهبى بلدة لها السيادة!...

ومن البيت الذى كان لأبى جدى بقيت فقط دالية كروم حقيقية لا تطرح عنباً، وعن هذه العائلة صدى قديم جداً فى الكتب التى تخص الأبرشيات؛ لكن فيما حول سجن أبى جدى،

ما زالت تحلق أسطورة. أذكر أن كل أقاربه لديهم هذه الأسطورة عن إنسان مجنون بمزاج سوداوى. لقد كنت طفلاً وكانوا يتحاشون أن يتكلموا عنه فى حضورى، ومع ذلك فمن خلال كلمات شاردة توصلت إلى أن أبا جدى كان مسجوناً فى سجن سانتياجو. وكان موجوداً فى قلب كرب عظيم لأنه كان محكوماً عليه بسبب جريمة بعيدة، والتي خرج حراً منها مقابل مال دفعه.

طوال ليالٍ كثيرة لم أستطع أن أنام فيها، ممعناً التفكير فى هذا التشوش، وأنقبض قلبى إذ سمعت فى الساعات المتأخرة الصوت المختلط للفارس العجوز الذى يصرخ فى نومه...

ينام أبو جدى فى صالة واسعة ببيت فى الأبعدية بالريف ويلزمه خادم على الباب، وأنا، أدرك أنه متقل بتأنيب الضمير، ونومه قلق بسبب الأشباح وخيالات تتراءى له فى أحلامه. هذا العجوز بالغ التجهم! ما أكثر ما أحببته، وعاملته ببراعة طفل يصلّى من أجل أن تغفر له جريمته. نعم، إن يدي أبى جدى وحشيتان. أدركت ذلك بالفعل عندما عرفت أنهما تلطختا بالدم.

ذات ليلة سمعت الحكاية من العجوز القروية التى تحكى دائماً تاريخ العائلة وهى تقوم بحياكة كيس شبكة صيدها فى قاعة انتظار الناحية. وتحكى للخدم الآخرين عن عظمة البيت

وحكايات الكبار. وعن أبى جدى ذكرت أنه كان صيادًا عظيمًا، وأنه ذات ليلة، وحينما كان عائداً من اصطياد الحجل، خرج ينتظره فى طريق الجبل نقيب مؤجر الأرض، الذى هو صاحب الامتياز. كان رجلاً أعمى، بعكاز، وتقوده ابنته من يده، كان خالغاً غطاء رأسه عندما تقابل هو والفارس:

— ملاك هو الذى أتى بك إلى هذه الطرق يا سيدى!

تكلم بصوت تخنقه الدموع. ودون مانويل بيرموديث رد عليه باقتضاب وتجهم:

— هل ماتت أمك؟

— لم يأذن لها الرب!

— إذا ماذا جرى لك؟

— بشهادة زور اثنان من أبنائى فى السجن. ويريد أن يقضى علينا كلنا الكاتب الظالم! جاء لحد أبوابنا بمنشور ملزم، ومضى يأخذ عليه توقيعاتنا بأن لا أحد سيعود ويطلق قطعان أغنامه لترعى فى المراعى الصيفية للملك.

تنهدت الفتاة التى تقود أباهما:

— أنا رأيته على باب عمى بيدرو دى بيرمو.

اقتربت نسوة أخريات وبعض الأطفال العائدين من الجبل،
مقطوعى الأنفاس تحت ثقل ما يحملونه من قطع أشجار
الصنوبر، وأحاطوا كلهم بالدون مانويل بيرموديث:

— والآن نحن الفقراء ليس بإمكاننا أن نعيش. والجبل
الذى عشنا فيه يسلبه منا لص من المدينة.
واستغاث الأعمى صارخاً:

— وأكثرنا قدرًا لا يتكلم ونقتلع السننتا. فبكلمات مثل هذه
اثنان من أبنائى فى السجن. وما إن سكّت الأعمى حتى اشتكت
الفتاة:

— لكونها واضعة يدها على الأرض فلا يأخذها رؤساء
البلديات من أُمى أجيدا.

يحكون أن أبا جدى أول ما سمع هذا صاح بصوت
غاضب حملها على الصمت:

— تكلم أنت، يا سيرينين! ما الذى تريد أن تطلعنى عليه!
تفرق الجمع، والفلاح الأعمى بقى فى وسط الطريق
برأسه المكشوفة، الصلعة حمرة تحت الشمس الغاربة...

نادى سيرينين دى بريتال، وأمه، فلاحه بلغت من العمر
مائة عام، أجيدا الجبلية. هذه المرأة كانت مرضعة لأبى جدى،

والتي أحبها جدًا، والتي لمرات كثيرة كان عندما يتمشى للصيد يصل إليها لزيارتها، ويجلس تحت التغطية التي تظل أمام باب دارها، ويتناول وجبة خفيفة بعد العصر بصحبته، ويأخذ لقمة من طاجن لبن.

دون مانويل بيرموديث، احتفى بظل الطريق ووقف صامتًا ومتجهماً، واستمع إلى شكوى سيرينين دي بريثال:

— لقد قضوا علينا! فلم يعد لنا الآن الحق في أن نذهب حيث نجمع قشور جذوع السنديان، ولا أن نسوق قطعان أغنامنا للرعى! وعلى الأبواب ترك إنذارات لكل الفلاحين موثق العقود الظالم الجبال التي كانت لنا، سرقت منا بواسطة أوراق مزورة، وشهادات باللسان مدفوعة الأجر، وأمام فضحنا لهذا التجبر، لى ابنان فى السجن. وما بقى لنا الآن هو فقط أن يعلقوا حجرًا فى رقابنا ويلقون بنا رأسًا فى النهر!

تصاعدت همهمات من الحشد:

— حظ الفقير أن يتحمل الأشغال!

— يوم الفقير لن تطلع له شمس!

— معاناة وعقاب! معاناة وعقاب، هو حكم القانون على

الفقير.

النسوة اللاتي تحملن أحطابًا من أشجار السنديان
متجمعات مع الأخريات العائدات من الأسواق شكلن حلقة التفت
حول الفلاح الأعمى، وعلى البعد وجدت جماعة من عازقى
الأرض تنتصت على حدود المزرعة، ويستريحون مستندين
على فتوسهم. نظر إليهم دون مانويل بيرموديث رويدًا رويدًا،
ثم قال لهم:

— فى يدكم الحل، لماذا لا تقتلون هذا الكلب المسعور؟

وعلى الفور سكت الجميع، لكن فجأة صرخت فيهم امرأة
تركت حملها من حطب السنديان يسقط على الأرض وهى تنتش
نفسها:

— لِمَ لا يوجد رجال، يا سيدى! لِمَ لا يوجد رجال!

ومن بعيد سُمع صوت أحد عازقى الأرض وهو يقول:

— الرجال موجودون، لكن أياديهم مقيدة .

وثارت المرأة:

— من قيّدكم؟ الخوف! اخرجوا يا جبناء! بأى فم تكلمنى،

عندما كلفونى فى الأرض العالية نفسها ثلاثة أبناء، وتركونى

مثلما تروننى، إلا من حماية السماء ولا أكثر، هى التى تسترنى؟

اخرجوا أيها الجبناء!

امرأة عجوز، والتي جاءت إلى الطريق مختربة حقول
الذرة، ردت عليها بأصوات أخرى:

— لا بد من القضاء على الجلادين! لا بد من القضاء
عليهم!

كانت أجيدا الجبلية تمشى مستندة إلى عصا، طويلة،
ومحنية، ترتدى ملابس الحداد. والفارس تطلع إليها بنظرة
مفعمة بالحنان:

— لماذا تحركت من عند بابك يا أجيدا؟

— لكى أراك، يا شمسى الذهبية!

وسيرينين دى بريثال، أدار عينيها الضريرتين إلى حيث
ارتفع الصوت من صاحبة المائة عام، وصاح وكأنه يكلم الهواء:

— الآن علينا أن نترك القضية للسيد!

وأجيدا الجبلية كانت قد جلست فوق أحد أحجار الطريق:

— بعد نصيحتك علينا أن نستمر، ماذا أنتم فاعلون؟

رد عليها سيرينين وسط همهمات أصوات عديدة:

— الذى نبت من النبالة يمتلك إحساسًا، والآخر الذى نبت
من الأرض.

أجيدا الجبلية نهضت واقفة مستندة إلى عصاها، وقد تحولت إلى امرأة عملاقة، وعلى الرغم من كونها محنية فقد تراءت بالغة الطول، بعينين سوداوين، كانت خلاسية بلون الشَّيْلَم:

— دون أن أسمعها، أعرف كلمات مليكى! الملك الذى أعتقد أن ما لديه من إلهام هو نفسه ما يصدر عن هذا الفم النبات من الأرض! القضاء على هؤلاء الجلادين. القضاء عليهم! دون أن أسمعها، أعرف الكلمات من مليكى!

صاح سيرينين:

— أنا لا أستطيع حمل أى شىء بدون نور عيني، والأبناء فى السجن!

بدأت النسوة فى الصراخ:

— حزم حطب السنديان هذه يجب أن تكون لحرقة حيّا، لص الفقراء هذا!

ارتفع فوق الحشد صوت مهدّدًا بالفعل:

— أين هم الرجال؟ كلهم جنباء!

وفجأة سكت الضجيج. ولسان واحد مرعب أخذ ينصح:

— عليكم أن تصمتوا وتعانوا. كل حياة تحمل صليبها!
انظروا من القادم!

من أعلى الهضبة، قدم يخب فوق حمار، ظهر الراكب،
والكل تعرفوا عليه، الكاتب الموثق مالبيدو!. يحكون أن أبا جدى
التفت حينذاك إلى عازقى الأرض الذين كانوا على حدود
المزرعة:

— عندى البندقية معمرة بالخرطوش، هل يريد أحدكم أن
يفوز بصيد سمين؟

وعلى الفور سكتوا كلهم. بعدها برز واحد من بين الأكبر
سنًا:

— الصقر يطير دائمًا فوق برج الحمام. واحد يموت،
والآخر يأتى.

— ألا تريدون أن تنتهزوا فرصة أن بندقيتى معمرة؟
أجابته أصوات متعددة بإصرار:
— نحن أناس فقراء يا سيدنا يا صاحب الأوقاف! أشقياء
بأنفسنا! أبناء الأرض!

أجيدا الجبلية نهضت واقفة وحجرتها ممتلىء بالحجارة:
— أيتها النساء، هيا بنا لندفن الجلادين!

الكاتب الموثق شاهد ناسًا كثيرين على الطريق، فمال إلى أن يأخذ طريقًا مختصرًا، لكن أبا جدى أظهر أنه ينادى عليه بأصوات عالية:

— يا سيد مالبيدو، نحن فى انتظارك هنا لنحقق العدل الصحيح.

رد الآخر عليه بفرح شديد:

— أنت ترتكب خطأً بذلك يا سيد يا صاحب الأوقاف! هؤلاء الناس مصرّون على السير فى الطريق الخطأ!

واقترب يخب فى سيره. أبو جدى ببطء شديد صوب بندقيته إلى الوجه، وعندما كان السلاح مصوبًا إليه صرخ عليه:

— هذه هى عدالتى يا سيد مالبيدو!

وبطلقة واحدة كوّمه على الأرض برأسه الغارقة فى الدماء.

أجيدا الجبلية ركعت على ركبتيهما وذراعاها مفتوحان، منحنية على قدمى أبى جدى، الذى وضع يده البيضاء على رأس البالغة مائة عام وقال لها:

— لقد أرضعتنى لبنًا طيبًا يا أم أجيدا!

ولقد هربوا كلهم، وبقي اثنان فقط في وسط الطريق، في مواجهة الميت.

حكّت ميكائيل لاجاليندا أنه على إثر هذا الحادث أبو جدى بقي لفترة في سجن سانتياجو. الفعل كان مؤكدًا، لكن الدافع كان شيئًا آخر. سنوات عديدة بعد ذلك، من أجل معلومات عبقرية، كان علىّ فيها أن أراجع أوراقًا قديمة، واستطعت أن أتأكد من أن هذا السجن كان ينتمى إلى حزب الرسل الباباويين السيد كولونيل الحرس الوطنى دون مانويل بيرموديث إى بولانيو. كنت طالبًا عندما توصلت إلى أن أكون فكرة صحيحة عن أبى جدى. وأعتقد أنه كان شخصية غير عادية. وهكذا قدرته فوق كل من هم من دمي، أن أرثه هو. والآن فى هذه الساعة، منتصرًا على كل من خاب أملهم، متذكرًا بزهو ذلك الزمن الشبابى، عندما كان يغيظنى أهلى كلهم، إذ تقول العجائز وهن يرسمن علامة الصليب: دون مانويل بيرموديث آخر! فليباركه الرب!

روساريتو

الفصل الأول

جالسة أمام واحدة من تلك المناضد القديمة الطراز، ذات القائم الواحد بلوحة السيدات، والتي انتشرت كموضة في أوائل القرن، ورأسها يتميل مترنحًا من مغالبة النعاس، العجوز الكونتيسة دي ثيلا. والخصلات ذات اللون الفضى من شعرها، انفلتت من الطرحة المشغولة بالدانتيل، تسحب بالتناوب أوراق اللعب التي تصفها لشخص واحد، وفي الطرف الآخر من الكنية، كانت حفيدتها روساريتو. وعلى الرغم من أن كليهما سيدات خيرات، فإنه من المؤكد أن لا أحد يعيرهما انتباهًا في حياتهما على مدى اليوم بطوله. إن الكاهن الذي يتولى شئون الرعاية الدينية للدار يقرأ بصوت عالٍ، منحنياً فوق المنضدة، وقد زين إطار نظارته بزخارف ودعمها بذراع مسلح ذهبى. رفعت روساريتو رأسها فجأة، وبقيت كما لو أنها غائبة عما حولها، شاخصة إلى باب الجنية الذي انفتح على خلفية من فروع أشجار داكنة وغامضة، ليست أكثر غموضًا في الحقيقة، لأن نظرة تلك الطفلة مدركة وصريحة! رأت على ضوء المصباح

الخافت صورة مقصّرة لرأس أشقر جميل جدّا؛ ظل الرموش
يهتز على الخد العاجي، والقوام الرقيق واللطيف برز على شبه
الظل غير المؤكد فوق القامة الذهبية، والدمقس الأزرق السماوي
للكنبة، تذكرت روساريتو أولئك السيدات الساذجات مرسومات
فوق خلفية من النجوم والشهب.

الفصل الثانى

أسبلت الطفلة عينيها، شاحبة، وشفثاها ترتعشان بارتجاف غريب، انفلتت منهما صرخة:

— يا يسوع... يا له من شيء مخيف!...

قطع الكاهن قراءته ونظر إليها من فوق نظارته وهمهم:

— أهو عنكبوت يا آنسة؟...

هزت روساريتو رأسها بالنفى:

— لا، يا سيدى، لا!

وازداد شحوب روساريتو جدًا، صوتها، المخنوق إلى حد ما، يشى بشكل غير مؤكد بالخوف والضيق. وعبثًا تحاول أن تتظاهر بالهدوء. أرادت أن تواصل شغل الإبرة الملقى على حجرها، فالرعدة المتزايدة خلال هاتين اليدين الشاحبتين، والشفافتين مثل يدي قديسة. يدان صوفيتان وحمراوان قانيتان، تبدوان نحيلتين فى الصلاة من خلال احتكاكهما وهما تسبحان بحبات المسبحة. مستغرقة فى غيابها عما حولها، شبكت إبر الشغل فى مسند ذراع الكنبه. بعد ذلك، وبصوت واطئ وحميم، كما لو أنها تكلم نفسها، قالت وهى تتلعثم:

— يا يسوع!... أى شيء أكثر غرابة!

وفى الوقت نفسه أسبلت جفניהا ومررت اليدين فوق
النهدين فى خطوط ببراءة وزهو... بدت وكأنها تحلم. والكاهن
نظر إليها باستغراب.

— ما الذى جرى لك يا آنسة روساريتو؟

وفتحت الطفلة عينيها قليلاً وأطلقت تنهيدة:

— قل لى يا دون بينثيو، أتكون إشارة من العالم
الآخر؟...

— إشارة من العالم الآخر!... ما الذى تريدان أن تقوليه
حضرتك؟

قبل أن تجيب، أرسلت روساريتو نظرة أخرى إلى الجنينة
الغامضة النائمة من خلال فروع أشجارها التى يتسرب منها
ضوء القمر، وبعد ذلك وفى صوت خافت ومرتعش همست:

— أقسم أننى من لحظة حدث أن رأيته يدخل من ذلك
الباب، دون ميجيل مونتينجرو...

— دون ميجيل يا آنسة، هل حضرتك متأكدة؟

— نعم إنه هو، وقد حيانى وهو يبتسم لى...

— لكن هل تتذكرين حضرتك الدون مونتينجرو؟ إنه هو نفسه، مرت عليه أكثر من عشر سنوات على الأقل وهو مهاجر.

— صدقنى يا دون بينثيو، كما لو أننى رأيته بالأمس، ولقد كنت طفلة صغيرة وذهبت مع جدى لزيارته فى معتقل سانتياجو حيث حبسوه لأنه من السياسيين المنادين بالحرية، والجد ناداه بابن العم. دون ميجيل كان طويلاً جدًّا، بشارب مبروم بشدة، وشعره أبيض ومجعد.

والكاهن أكد:

— بالضبط، بالضبط. من ثلاثين سنة وشعر رأسه أبيض من شعر رأسى الآن. بلا شك، حضرتك سمعت عن حكايته...

ضمت روساريتو كفيها:

— أوه! مرات كثيرة! الجد كان يحكيها دائماً.

وقطعت حديثها ناظرة مباشرة إلى الكونتيسة. والسيدة العجوز نظرت إلى حفيدتها بشكل صارم، وما زالت لم تصح تماماً، غمغمت:

— كيف تقولين مثل هذا الكلام يا بنية؟ دعى دون بينثيو يقرأ.

أحنت روساريتو رأسها وأخذت تحرك إبر شغلها، لكن دون بينثيو، الذى لم يكن متحمسًا لمواصلة القراءة، أغلق الكتاب وأنزل نظارته حتى طرف أنفه:

— لنتكلم عن الرجل الشهير دون ميجيل، يا سيدتى الكونتيسة. دون ميجيل مونتينجرو، صهر، إن لم أكن مخدوعًا، البيت الكريم الأصل للكونت دى ثيلا...

السيدة العجوز الكبيرة قاطعته:

— وإلى أين سيمضى حديث حضرتك فى البحث؟ وأيضًا حضرتك عندك خبر بأن ابن عمى ملحد؟ أنا عارفة بأنه هنا فى البلد، وأنه يتآمر وقسيس ثيلا الذى عرفه جيدًا فى البرتغال، قد رآه فى مولد باربانثون، متكررًا فى هيئة محتال.

خلع دون بينثيو نظارته تمامًا:

— همم! عندي خبر، وخبر عن الأمور الأكثر غرابة. لكن ألا يكون الأمر اختلط على قسيس ثيلا؟...

هزت الكونتيسة كتفها:

— ماذا؟ أتشك فى هذا حضرتك؟ لكن أنا لا أشك. أعرف إلى حد التهمة السيد ابن عمى!

— السنوات تفتت الصخور، يا سيدتى الكونتيسة، لقد
أمضيت أربع سنوات سائراً فى جبال ثاباراً والسلاح فوق كتفى،
واليوم خلال سنوات أخرى أجتهد فى عملى، مكتفياً بأن أطلب
من الرب فى صلاة القداس النصر للقضية المقدسة.

ابتسامة متعالية بدت فى الفم عديم الأسنان (الأرد) للسيدة
العجوز ذات النسب:

— لكن هل تريد حضرتك أن تقارنه بك، يا دون
بينثيو؟... بالتأكيد أنه فى حالة ابن عمى، كل شىء يمكن النظر
إليه قبل أن يتخطى الحد، لكن هذا الفرع من آل مونتيجرو فرع
مجانين. عمى دون خوسيه كان مجنوناً، وابنه كان مجنوناً،
وأحفاده سيكونون مجانين، وحضرتك ستسمع ألف مرة فى بيت
القساوسة وهم يتكلمون عن دون ميجيل، ثم إن كل ما عدته،
لا يساوى شيئاً مقارنة بما فعله ذلك الرجل.

كرر رجل الدين بصوت معتدل:

— بالفعل أنا عارف، أنا عارف، ولدىّ خوف شديد، إنه
رجل مزعج، متحرر، ماسونى!

تطلعت الكونتيسة بعينيها إلى السماء وتتهدت:

— هل سيأتى إلى دارنا؟ كيف يبدو لك حضرتك؟

— من يعرف؟ يعرف القلب الطيب لسيدتى الكونتيسة.

أخرج الكاهن من جيب سترته الدينية منديلاً كبيراً
بمربعات زرقاء، ونفضه في الهواء بكل رشاقة، وبعد أن مسح
به صلحته:

— لسوف تكون كارثة حقيقية! لو أن سيدتى أخذت
بنصيحتى، تقفل الباب فى وجهه.

أطلقت روساريتو تنهيدة. نظرت جدتها إليها بشكل صارم
ونقرت بأصابعها على ذراع الكنية.

— ذلك الذى قلته حالاً، يا دون بينثيو. هذه النظرة تعنى
أن حضرتك لا تعرفه، فأنا سأقفل الباب فى وجهه، وهو سيخلعه
ويسقطه أرضاً، وعلاوة على ذلك، يجب أن أنسى أنه ابن عمى.

رفعت روساريتو رأسها. وفى فم الطفلة رففت ابتسامة
شاحبة للقلوب الحزينة، وفى العمق الغامض لحدقتيها برقت
دمعة لم تنزل. وفجأة ارتفعت صرخة وكان على عتبة باب
الجنينة رجل يقف بشعر أبيض، تمثال لرجل أنيق، وقوام مازال
رائع الجمال، ومنتصب.

الفصل الثالث

دون مونتيجرو كان قد قارب الستين عامًا. وهو من هذا النوع الجميل والرجولي (من نسل أمة جرمانية غزت إسبانيا في القرن الخامس الميلادي معروف جدًا من أعيان جبال جليقية). وهو ناظر وقف لعائلة عريقة ذات نسب، وشعارها يبرق بستة عشر مربعًا من النبالة وتاج ملكي للرئيس. دون ميجيل، بفضيحة مدوية لأقربائه، وأقرباء أقربائه، عند عودته من هجرته الأولى أتلّف الأسلحة التي ظهرت فوق بوابة دار الأعيان، بيت كبير آيل للسقوط، أمر ببنائه المارشال مونتيجرو، الذي كان من المشاركين في حروب فيليب الخامس وكان الأكثر شهرة فيهم من ناحية نسبه، وبقيت ذكراه في البلد محفوظة، هنا السيد العظيم غريب الأطوار، المستبد، والصياد، السكر المضياف. دون ميجيل في الثلاثين من عمره بدد بثمن بخس ميراثه، واحتفظ فقط بالإيجارات، وأراضى الوقف، الدار الكبيرة، وأمالك موقوفة لخدمة العبادة، وذلك كله هو الذي بالكاد يوفر له الطعام. وحينئذ بدأت حياته كمتأمر ومغامر، حياة تملؤها بشدة المخاطر والنكبات مثل تلك الحياة لكل الأبناء غير البكر لوالدهم من الأعيان، والذين يلتحقون بالجمعيات الأخوية الدينية في إيطاليا للبحث عن تصيّد الحب، بالسيف، أو بالمال.

ليبرالى عميل فى الماسونية، يتصنع الاستخفاف بكل مآثر النبلاء. ما لم يمنعه من أن يكون متعالياً وقاسياً مثل عربى نبيل. وفى داخله يشعر بالزهو بنسبه. على الرغم من إنصافه الدانتونى (أتباع دانتون)، فإنه يتلذذ باستعراض أسطورة شعار الأسرة الذى ينحدر من آل مونتيجرو من إمبراطورة ألمانية. ويحب مصاهرة البيوت الأكثر نبالة فى جاليثيا. ومنذ الكونت دى ثيلا إلى دى التاميرا معهم كلهم يتساوى، وبالنسبة لكل فهم بالنسبة له أبناء عم. وكما تتساوى بينهم الملوك. وعلى العكس لا يقدر الأعيان جيرانه، ويثرثر معهم وهم جالسون حول مائدته ويجعل الخدم يجالسونه. وكان ذلك أمراً من وجهة نظر دون ميجيل إقامة المساواة كمبدأ أعلى، ويزيد الطين بلة فيصيح، بذلك التضخيم للصوت لسيد عظيم لكى يثير دهشة ضيوفه:

— فى بيتى، يا سادة، كل الرجال متساوون. هنا قانون الحكمة للفيلسوف جوديا.

دون ميجيل كان واحداً من أولئك المجانين من عرق طيب، بسلوكه كسيد عظيم، له ذكاء شاعر شعبى متجول، وعزم قرصان. ويثير جلبة متواصلة حول نفسه تستمر دون سبب أو موضوع بالغ الطيش كما فى مزاحه، يثير الضوضاء مثلما هو مكفهر، تحزنه أمور غريبة فى الحقيقة وعندما يعود إلى الصورة المتخيلة عنه تكتشف الفعل الأسطورة. والليبراليون

القدامى المؤيدون لريجيو يحكون عنه أنه قد ابيض شعره منذ أن حكم عليه بالموت، وبقي متحفّظاً عليه ثلاثة أيام في انتظار تنفيذ الحكم بإعدامه، وترتب على ذلك أن قرر الهرب، وهرب بمعجزة لجسارته. لكن البغايا من أهل إقليمه، وهن جدات الآن، يتنهذن عندما يتلون عن ظهر قلب لأحفادهن أشعار الشاعر الجوال، وقد أظهرن شيئاً فائق الجمال... لقد حدث ذلك في الأزمنة الطيبة للرومانتيكية، وكان بالتحديد يفترض أنه ضحية لوقائع حب مأساوية. كم من المرات سمعت روساريتو في سهرات السمر عن أجدادها حكاية أولئك ذوى الشعر الأبيض! حكّتها دائماً عمتها — أمادا دى كاماراسا — آنسة في الخمسين من عمرها والتي تقرأ الروايات وهي تتحرق شوقاً، بمشاعر طالبة جامعية ساكنة في بيت الطالبات، وغير مجربة، ومازالت تعزف في قاعات استقبال النساء الارستقراطيين لكومبوستيلا الكئيبة ألحاناً سنة ثلاثين. أمادا دى كاماراسا تعرفت على دون ميجيل في لشبونة عندما تم زفاف الأمير دون ميجيل. كانت هي شابة صغيرة، وقد ظلت حاضرة جداً الشخصية المتجهمّة لذلك المهاجر الإسباني، بقامته الفارعة المنتصبّة، ووقفته المتعالية، والذي يتمشى كل صباح مع الشاعر إسبرونثيذا في فناء الكاتدرائية. ولا يخطو خطوة دون أن يخطب الأرض بالطرف المكسو بالجلد لعصا من الغاب الهندي. أمادا دى كاماراسا لم

تستطع إلا أن تتهد دائماً، على الأقل عندما تستحضر ذكرى السنوات السعيدة التي قضتها في لشبونة. ربما تعود وترى بعين خيالها، وبشكل مؤكد، السيد ذا النسب، البرتغالي لوسيتانو ذا الوجه الأسمر، والشفة المعشوقة، والذي كان الحب الوحيد في شبابها، ولكن هذه حكاية أخرى، ولا أحد يحب أن يراها مع حكاية دون ميجيل دي مونتيجرو.

الفصل الرابع

النبيل صاحب الوقف كان قد انتصب فى وسط فضاء الصلاة، وحيا بانحناءة من قامته الطويلة، محبوسًا فى بالطو مبرى طويل.

— مساء الخير يا كونتيية ثيلا، أنا هنا، ابن عمك مونتينجرو القادم من البرتغال!

صوته الرنان فى وسط السكون المخيم فى الصلاة الواسعة والمعتمة لدار الأعيان، بدا أكثر قدرة، أكثر اعتدادًا بالنفس، والكونتيية دون أن تكشف عن استغرابها، ردت عليه بجفاء:

— مساء النور يا سيدى.

مسد دون ميجيل شاربه، كرجل اعتاد منهم مثل هذا النفور، وكان عليه بالكاد أن يحتملهم. من قديم وهم يستقبلونه بطريقة مماثلة فى بيت أقاربه وجيرانه، دون أن يبدوا أبدًا رغبة فى ضمه إلى صدورهم. أقنعت بنفسها الخدم بأن يطيعوها، وأكدت على الشباب بوضوح أن يبدوا صدودهم للسيد العظيم. وكان ذلك لترى كيف يرى هؤلاء الأعيان الفلاحين أنهم لن يخرجوا أبدًا من جحورهم لينتهوا فى تواضع أمام الرشاقة

الفروسية والصوت المفخم للعجوز الليبرالى، وحياته فى التآمر، مليئة بالمآثر المجهولة، يجذبهم إليه سلطة بايعاز غامض. دون ميجيل اقترَب بسرعة من الكونتيسة وأخذ يدها فى جو لطيف مجامل وعائلى:

— أنتظر منك، يا ابنة عمى، أن تتكرمى باستضافتى لليلة واحدة. هكذا كان يتكلم، بوقار متكلف لرجل عجوز ظريف، وجرّ كرسيًا مسكوفيًا ثقيلًا بجوار الكنبّة، وعلى الفور دون أن ينتظر إجابة، التفت إلى روساريتو.

لعله أحس بوطأة الجاذبية المغناطيسية لتلك الفطرة التى يمتلكها فضول العذراء والعشق من المرأة! وضع المهاجر يده فوق الرأس الشقراء الصغيرة، مما أجبرها على أن ترفع عينيها إليه، وبذلك اللطف، حسن الذوق، والظرف للرجال الشيوخ الذين عشقوا وغازلوا الكثيرات فى شبابهم، نطق كلماته بصوت هادىء، الصوت العميق الحزين الذى يذكر بالماضى!

— أنت لا تعرفيننى، حقيقة، يا ابنتى؟ لكن أنا أعرفك، لقد تعرفت إليك فى مكان ما، لقد ظهرت كثيرًا مع عمّتك، أخت جدك، والتى لا يمكنك أن تعرفيها الآن! اسمك روساريتو، حقيقى؟

— نعم يا سيدى.

التفت دون ميجيل إلى الكونتيسة:

— هل تعرفين، يا ابنة عمى، أن الصغيرة بالغة الجمال؟
وحرك رأسه الفضية كاملة الرجولة، مواصلاً الكلام كما
لو كان يكلم نفسه:

— جمال فائق لكى يمكن أن يجعلها سعيدة!

والكونتيسة مجاملة فى حالة الزهو التى لجدة التفتت
برفق، وهى تبتسم لحفيدتها:

— لا تُدرِ رأسى، يا ابن عمى، فهى ستكون جميلة، أما
الذى سيجعلها بالغة الجمال فهو شىء قليل من كثير طيب!

واللاجئ السياسى جلس بطريقة مسرحية غامضة، وبقي
متأملاً فى الفتاة الصغيرة، التى كانت بعينيها المطأطئتين، تحرك
إبر شغلها، مرتعشة، بطيئة الحركة. هل خمن العجوز/ الليبرالى
ما أحدثه فى ما جرى لتلك الروح البالغة النقاء؟ هل لديه، مثل
كل المغوين الكبار، هذا الحدس الخفى الذى يقرأ فيه الحميمة
التى فى القلوب ويعرف الساعات المناسبة فى الحب؟ وذلك أنها
كانت ابتسامة لا توصف، شجاعة رفت للحظة تحت الشارب
الأبيض للرجل النبيل، وأن عينيهِ الخضراوين -، المتعالييتين
بإباء كما لو كانتا لطاغية أو لقرصان - باستعراض دون
خوانى فوق تلك الرأس الحزينة المنحنية، التى بخصلتها الذهبية،

مفروقة بخط دقيق، تمتلك طهارة مؤكدة للرسوم السابقة لرفايل،
لكن الابتسامة والنظرة للاجئ السياسى برقتا بشروعه، وحوادث
هروبه.

استرد، دون ميجيل، على الفور مقامه كرجل عظيم/ كبير
وانحنى أمام الكونتيسة:

— عفواً يا ابنة عمى، إننى حتى الآن لم أسألكِ عن ابن
عمى الكونت دى ثيلا.

السيدة الكبيرة تنهدت رافعة عينيها إلى السماء:

— آى! الكونت دى ثيلا، هو منذ زمن طويل ابنى
بدرو!...

النبيل صاحب الوقف اعتدل فى كرسيه، وهو يدق
الأرض بطرف عصاه:

— الله حى! فى المنفى/ الهجرة لا أحد يعلم شيئاً. بالكاد
يصل خبر... مسكين صديقى! نحن لسنا أكثر من تراب!

قطب الحاجبين، واستند بيديه إلى القبضة الذهبية
لعصاته، وأضاف بتبجح:

— لو كنت عرفته قبل ذلك، صدقيني أننى لم أكن لأنال
شرف استضافتك لى فى قصرى.

— لماذا؟

— لأنك ما حملت لى أبدًا مشاعر طيبة. وفى ذلك أنتِ
من العائلة!

السيدة النبيلة ابتسمت بحزن:

— أنت من تتكرت للجميع. لكن فيم جئت لتتذكر ذلك
الآن؟ حاسب نفسك عما فعلته للرب فى حياتك؟ وعندئذٍ.....

انحنى دون ميجيل بسخرية لاذعة:

— أقسم لك، يا ابنة عمى، أننى كلما وجدت وقتًا، أبدى
ندمى.

خادم الكنيسة، الذى لم تخرج كلمة من بين شفتيه، التفت
إليه بوجه بشوش، وبلطف حتى يزيل الخوف من حماسه النبيل
— أتباع فلسفة فولتير، يا دون ميجيل، أتباع فلسفة فولتير،
والذين بعد ذلك، فى ساعة الموت...

ودون ميجيل لم يرد. وفى عيني روساريتو! انتهى من أن
يقرأ، رجاءً خائفًا، ومحترقًا مرة واحدة. العجوز الحر نظر إلى
رجل الدين من فوق لتحت، واستدار إلى الفتاة الصغيرة، التى
ترتجف، وأجاب وهو يبتسم:

— لا تخافى، يا صغيرتى! ولو أننى لا أؤمن بالرب، إلا
أننى أحب الملائكة...

ورجل الدين، بنفس درجة الصوت التى تستميل السامع،
والصريحة، عاد ليكرر:

— أتباع فلسفة فولتير، يا دون ميجيل!، أتباع فلسفة فولتير
فى فرنسا!...

تدخلت الكونتيسة بطريقة خشنة إلى حد ما، موجهة
كلامها إليه بنفسها:

— إن الكفرة، عديمى التقوى، الذين يغازلون النساء،
اللاجئ السياسى الذى يبعث فى الآخرين خوفاً مبهمًا... ثم
أضافت:

— فلتتركه، يا دون بينثيو! فلا هو سيقنعنا، ولا نحن
سنقنعه...

ابتسم دون ميجيل بسخرية لطيفة:

— شكرًا، يا ابنة عمى، بهذا الحكم المشمول بالإنفاذ الذى
منحته لأفكارى. إذ إننى رأيت بالفعل كم هى فصاحة خدام
كنيستك!

ابتسمت الكونتيسة ببرود من أطراف شفيتها. ووجهت نظرة آمرة إلى رجل الدين بأن يلتزم الصمت.

بعد ذلك، تعمدت أن تتصرف بشكل صارم تكسوه أمارات الحزن، ترسمها عادة السيدات اللواتى فى سن الثلاثين وهن يستقبلن الضيوف الرجال فى قاعة الاستقبال. وغمغمت:

— عندما أفكر فى الزمن الذى مضى والذى لم نكن نراك فيه! من أين خرجت علينا الآن؟ وما السبب الجنونى الذى أتى بك إلينا؟ أيها اللاجئين السياسيون، ألا تتعبون أبداً!...

— انقضت سنواتى فى كفاح بالفعل... والآن أنا لست ذلك الذى كان معروفاً لك... لقد عبرت الحدود، وقد عبرت وحدى لأقوم بمساعدة بنت يتيمة لأحد اللاجئين المهاجرين، والذى اغتاله طلاب كويمبرا، وبمجرد انتهائى من هذا الواجب، فإننى سأعود إلى البرتغال.

— لو كان الأمر كذلك، فليكن الرب معك!...

الفصل الخامس

ساعة قديمة دقت العاشرة أثناء الحديث بعد تناول الطعام. كانت من الفضة المذهبة ومن ذوق ثقل وباروكي، كعمل من القرن الثامن عشر. صورة باكو مزينة بأوراق العنب. ونائمًا فوق نفق. والكونتيسة عدت الساعات بصوت عالٍ، وعادت إلى المسألة التي كانت تتحدث فيها:

— أنا عارفة أنك كنت قد مررت بسانتياجو، وأنتك بعد ذلك كنت موجود في سوق باربانثون، متكرًا في هيئة بائع محتال، ومعلوماتي كانت أنك كنت مشتركًا في مؤامرة.

— بالفعل أنا أعرف أن ذلك قد قيل.

— بالنسبة لك، محاكمتك في قدرة الجميع، أقله أنك مارست دور الداعي لمحبة الله والغير كمبشر...

والسيدة النبيلة ضحكت بعدم تصديق وبعد ذلك بلحظة، أضافت، خافضة وهي فاقدة الإحساس صوتها:

— وتكون القضية أنه لا يمكن الاحتفاظ بالرأس ونحن واثقون جدًا فوق الأكتاف!

وخلف قناع قِلَّة الاكتراث مع ما تحب أن تكسو به
كلماتها، مظهرة الاهتمام والتأثير.

ودون ميجيل هادئاً وبنفس درجة الصوت السرية، متجولاً
بنظراته فى الصالة.

— والآن أنتِ فاهمة أننى جئت هارباً! أنا فى حاجة إلى
حصان لكى أرجع به فى الغد نفسه إلى الحدود.

— غداً.

— غداً.

فكرت الكونتيسة للحظة:

— فى هذه الحالة فليس لدينا فى الدار ولا حتى ركوبة
سيئة!...

ومثلما لاحظت أن اللاجئ السياسى قطب جبينه،
أضافت:

— تخطئى إن شككت فى ذلك، وأنت نفسك يمكنك أن تنزل
إلى الإسطبل وتراه.

ولقد وقع حادث من شهر، إذ مرّت من هنا وهى تفتش
وتستولى على ما تجده عصاية الأبر (مقطوع اليد) وأخذت

معها الفرستين اللتين كانتا لدينا. ولا أريد أن أعود للشراء، لأنها وضحت لى أنها ستعيدهما إلىّ فى يوم أفضل.

قاطعها دون ميجيل:

— ولا يوجد فى القرية من يعير حصاناً إلى الكونتيسة دى ثيلا؟

وعلى سؤال النبيل صاحب الوقف مرت لحظة من الصمت.

كل الرعوس كانت منحنية، وبدأت وكأنها تقيس الأمر. وروساريتو التى كانت جالسة فوق الكنبه بجوار السيدة الكبيرة بيديها المتقاطعتين وقد وقع شغل الابرّة فى حجرها. تنهدت بخوف:

— جدتى، أمين المخازن لديه حصان لا يجرؤ أحد على ركوبه.

وبوجه تكسوه حمرة الخجل انفرج الفم، فم المادونا، وفى عمق العينين الغامضتين المتغيرتين، التصقت روساريتو بجسد جدتها كما لو أنها تلتمس الحماية من خطر تتعرض له. دون ميجيل أدخل الخوف إلى قلبها! لكنه خوف إيعازى، خوف فائن، أخاذ. تمنّت لو أنها لم تعرفه. والتفكير فى أنه سيتمكن من الذهاب أحزنها. بدا لها مثل البطل فى قصة رهيبة، وجمال

حكايتها جعلها تسمعها وهي ترتعش، وبالرغم من ذلك، احتفظت بشجاعته حتى النهاية، بقوة ساحرة، والآن كان قد مسد الشارب المسترسل وببساطة رفعه فوق شفته. تصرفه كان مثيراً لثرثرة فارغة:

— الله حي! الحصان الذي لا يجرؤ أمين المخازن أن يركبه تقريباً. لا بد أن يكون إنساناً جاهلاً أو أخرق. وها أنذا، يا عزيزتى؛ وهذا هو الحصان الذي يلائمنى!

حركت الكونتيسة فى غفلة منها بعض أوراق اللعب المقسمة للاعب واحد، وعندما انتهت من ذلك للحظة، كما لو كان التفكير والكلمات يأتیان من بعيد جداً، توجهت إلى خادم الكنيسة:

— دون بينثيو، سيكون من اللازم أن تذهب حضرتك إلى بيت راعى الكنيسة وتتكلم مع أمين المخازن.

ودون بينثيو سكن، وهو يحرك أوراق السنة الميلادية:

— سأفعل ما رتب له السيدة الكونتيسة؛ لكن مراعاة لرأىك الأفضل، فرأى أن ننتبه أكثر لوجود رسالة لسموكم.

وهنا رفع رجل الدين الرأس المقبولة فى سلك الإكليركيين، وعندما لاحظ الإشارة إلى عدم اقتناع السيدة بما سمعته منه، بادر إلى القول:

— اسمحى لى، يا سيدتى الكونتيسة، بأن أفسر لكِ
المسألة. ففي يوم سان ثيدران ذهبنا معًا للصيد. بين أمين
المخازن وخادم دى ثيلا، وكنا التقينا فى الجبل، وقد دبرا لى
حيلة شيطانية. وطوال النهار ظلا يضحكان. مع سنواتهما
الستين التى يحملانها على عاتقهما فالاثان يمتلكان الحس
الساخر الذى للصوص! فإذا ذهبت الآن بنفسى إلى بيت راعى
الكنيسة، أطلب الحصان، فمن المؤكد أنهما سيأخذان فى الحديث
عنه. إنه إنسان داهية هذا العجوز جدًا السيد أمين المخازن!

همست روساريتو بلهفة لى تسمع السيدة الكبيرة:

— جدتى، اكتبى له حضرتك...

واليد المرتعشة للكونتيسة داعبت الرأس الشقراء لحفيدتها:

— طبعًا يا ابنتى!...

والكونتيسة دى ثيلا، التى قضت أعوامًا عديدة مهددة
بالشلل، صارمة وبدون مساعدة، تقدمت خادم الكنيسة وعبرت
الصالة، وبانحناء نبيلة فوق حقيبتها، واحدة من تلك الحقائق
كما لو كانت آتية من المصحات، بجيب من القطيفة القرمزية
والمزينة بمسامير من الفضة.

الفصل السادس

من العمق المعتم للحديقة، حيث الجداجد تعزف سيرينادا،
تأتى أصوات هامسة وروائح ذكية تحملها نسائم رقيقة تهب
فتجعل الغصون تهتز، دون أن توقظ الطيور النائمة فوقها.
أحياناً، ينفرج ورق الشجر وهو يخشخش وينفد من بينه شعاع
من ضوء القمر، الذى يتكسر فوق مقعد حجري، ويختفى جسد
فى الظلمة الخفية. الحديقة مفعمة برائحة ذكية، وتلك الإشارات
الليلية، ومفعمة بالشهوة والاسترخاء وذلك الشعاع القمري، وتلك
العزلة، وذلك الغموض تحمل ما يشبه إثارة مشاعر رومانتيكية
للمواعيد الغرامية، فى قرون المغنين الشعبيين الجوالين. نهض
دون ميجيل من كرسية، ومسيطراً عليه ذهول غريب، بدأ
يتمشى مكفهاً وصموتاً. ارتجت الأرضية تحت مشيته
العسكرية، وارتجت ترايبزات (كونسول) قديمة الطراز، والتي
تبدو عالية بما تحمله من تماثيل من طراز الركوكو، الطوانيس،
والزهريات. عينا الفتاة الصغيرة تابعتاه خائفتين وغائبتين عن
الوعى فى الذهاب والإياب لذلك الشخص الغامض: فإذا اقترب
اللاجئ السياسى من النور، لا تجرؤ أن تنظر إليه، وإذا تلاشى
فى العتمة، تبحث عنه بجزع.

دون ميجيل توقف فى منتصف الصالة، وروساريتو من تحت أهدابها استعجلته. ابتسم صاحب الوقف متأملاً هذه الرأس الشقراء الأنيقة، التى تنحنى مثل زئبق من الذهب، وبعد لحظة انتهى إلى أن قال:

— انظرى إلىّ يا ابنتى! فعيناك تذكراننى بعينين بكتا كثيراً لى!

لدون ميجيل إشارات تراجيدية وعبارات خبيثة وبها مرض للرومانتيكيين المغوين، فكان قد تعرف فى شبابه على لورد بايرون وتأثير الشاعر الإنجليزى بشكل نهائى. أهداب روساريتو قاربت خدما بخوف وخفقان قلب وبدأت منحنية كأهداب مبتدئة فى سلك الرهبة. واللاجئ السياسى هز شعر رأسه الأبيض، ذلك الشعر الذى كثيراً ما ذكر الفتاة الصغيرة بالقصص الروائية أثناء السهرة، وذهب ليجلس على الكنب:

— لو جاءوا ليقبضوا علىّ، ما الذى ستفعلينه؟ هل ستجروين على إخفائى فى غرفة نومك؟ إحدى العابدات فى سان بايو أنقذت بتلك الطريقة حياة جدك!...

لم تجب روساريتو. وهى، ببراعة شديدة، أحسست بنار حمرة الخجل فى جسدها كله. والعجوز الليبرالى حدق فيها بشدة كما لو كان ذلك فقط بحثاً عن إقلاقها أكثر. أسر هاتين العينين

الخضراوين كان فى وقت ما غامضًا ومغويًا، عينان مقلقتان
وجسورتان: يتركهما ليسرى الحب منهما كالسم، كى تهتك
الأرواح وتسرقا القبلات من الأفواه الطاهرة. بعد ذلك بلحظة،
أضاف بابتسامة مريرة:

— اسمعى لما سوف أقوله لك. إذا جاءوا ليقبضوا علىّ،
فسوف يقتلوننى. وحياتى الآن لا يمكنها أن تطول، أو تكون
سعيدة، وهنا، ها هى يداك الرحيمتان لتدفناني!...

وكما لو أنها تريد أن تبعد الأفكار السوداء هزت رأسها
بحركة حاسمة وجميلة، وطرحت إلى الوراء خصلات شعرها
التي كانت تحجب جبينها، جبين عال خالٍ من الزينة والذى يبدو
موصدًا أمام المبالغات كلها، وتصرفات الجنون كلها، وكل ما
شغله هو الحب عن الكراهية، والسماوى عن الشيطانى...
وهمست روساريتو تقريبًا بلا صوت:

— سأهب نفسى راهبة مبتدئة للعدراء لكى أنقذ حضرتك
بالعمل الصالح من المخاطر العديدة!...

موجة لايمكن وصفها من الحنو أغرقتها بغرق بالغ
العذوبة، وأحست بنفسها فريسة لتشوش غريب، وسرعان ما
انخرطت فى البكاء، لا تعرف لو أن ذلك من الجزع، أو من
الندم، أو من الرقة، وقد حرك أعرق ما فى كيائها، باضطراب

غامض، وحتى ذلك الحين ما من رغبة ولا حضور. ونار حمرة الخجل أحرقت خديها، والقلب يريد أن يطفر قافزاً من صدرها، وغصة من سكرات الموت الربانية ضغطت على حنجرتها، وقشعريرة خفية جرت في بدنهما. مرتعشة، بالارتعاشة التي تسبق الرجل عند دخوله بالعدراوات، راغبة في أن تهرب من تلكما العينين القاهرتين، اللتين، دائماً، ما تحدقان فيها، لكن الساحر واللاجئ السياسى المهاجر يقاوم، ويستحوذ عليها تماماً بإشارة غريبة من عاشق طاغية، وهى باكية، متلاشية، غطت وجهها باليدين. اليدان الجميلتان لراهبة مبتدئة، شاحبتان، متصوفتان، محمرتان بشدة.

الفصل السابع

ظهرت الكونتيسة فى باب الغرفة، حيث توقفت وهى
تلهث خائفة القوى:

— روساريتو، ابنتى، تعالى وأعطنى الحضن!...

وبالعكاز أبعدت ستار الباب وعليه شعار العائلة.
وروساريتو مسحت الدموع من عينيها، وجاءت إليها بسرعة.
والسيدة النبيلة، استندت بيدها اليمنى البيضاء المرتجفة إلى كتف
حفيدتها، واستردت أنفاسها وهى تتنفس الصعداء:

هناك ذهب فى طريق بيت راعى الكنيسة بتلك السعادة
الدون بينثيو!...

بعد أن بحثت عيناها عن اللاجئ السياسى:

— وأنت، من الآن حتى الغد أليس من المفترض أن تفكر
جيدًا فى طريقة؟ هنا أنت تكون فى مأمن كما لو أنك لست
موجودًا فى أى مكان.

وعلى شفتى دون ميجيل بدت ابتسامة الاستهانة الجميلة.
فم ذلك النبيل المغامر صدرت عنه الأمانة التى بها تحدى السادة
العظماء الموت. دون رودريجو كالديمون لا بد أنه ابتسم

ابتسامة مثل هذه فوق منصة الإعدام. والكونتييسة تركت نفسها
تسقط فوق الكنبه، مضيفة بسخرية رقيقة:

— لقد أمرتهم بأن يرتبوا الحجرة التى عاش فيها، حسب
ما علمنا، فراى ديجو دى قادش عندما كان فى البيت الريفى
هذا. ولقد بدت لى أن حجرة القديس هى أحسن غرفة تليق
بسموك...

وأنهت عبارتها بابتسامة. وصاحب الوقف انحنى لها
مؤكدًا كونه مازحًا كبيرًا:

— لا بد أن القديسين بدأوا حياتهم خطأً كبيرًا.

— لو فراى ديجو أراد أن يعمل معك معجزة!

— نحن فى انتظاره، يا ابنة عمى.

— أنا التى أنتظره!

والعجوز المتآمر، تغير فجأة وبشكل عبرى، وشرح لها
مؤكدًا بشدة:

— عشرة فراسخ قطعتها ماشيًا مجتازًا أكمات وأراضى
وعرة وأنا أكثر من مطحون، يا ابنة عمى!

كان دون ميجيل واقفًا على قدميه. والكونتييسة قاطعته
وهى تغغم:

— ليحمننا الرب مع الحياة التى حملتك إلينا!... إذا أنت بحاجة إلى أن تتماسك وتستعيد قواك من أجل الغد.

وبعد ذلك، التفتت إلى حفيدتها، وأضافت:

— وأنت ستتيرين له الطريق وترشدينه، يا صغيرتى.

أومات روساريتو برأسها، كما يفعل الأطفال الخائفون، وراحت تشعل واحدًا من الشمعدانات الموضوعة فوق الترابيزة الكونسول التى تقع أمام غرفة استقبال النساء وهى ترتعد مثل إنسان مصفد اليدين، تقدمت نحو الباب، حيث كان عليها الانتظار ريثما ينتهى الحديث الذى كان صاحب الوقف والكونتيسة يتجاذبان أطرافه بصوت خافت.

وروساريتو بالكاد، لمحت همسًا غامضًا، وأسندت رأسها على الحائط وهى تتنهد، وأطبقت جفניה، وأحست بنفسها فريسة لاضطراب ملأها بنبضات مسموعة ومرتبكة. وبهذا الوضع لعمود بشكل فتاة بدت بشكل مثالى على صلة بالآخر. كانت شديدة الشحوب وشديدة الحزن، لدرجة أنها لم يكن باستطاعتها أن تتأمل نفسها للحظة دون أن تشعر بأن قلبها يتحمل فوق طاقته فى فكرتها عن الموت... ونادتها جدتها:

— ماذا بك يا صغيرتى؟

وكانت كل إجابة روساريتو هي أن انفرجت شفتاها وهي
تبتسم في حزن. والسيدة الكبيرة حركت رأسها بعدم رضا منها،
واستدارت إلى دون ميجيل:

— بالنسبة لك، مازلت أنتظر أن أراك صباح الغد، ف خادم
الكنيسة سيقم لنا قداس الفجر في الكنيسة الصغيرة، وأحب أن
تستمع إلى القداس...

وانحنى لها صاحب الوقف، الانحناءة التي يمكنه أن
ينحنى بها أمام ملكة. بعد ذلك، بتلك المشية المتعالية السامية
التي تنسجم تمامًا مع طبيعة روحه، عبر الصالة. عندما كانت
تتسلل الستارة خلفه، كانت الكونتيسة دي ثيلا تمسح قطرات من
دموعها.

— أية حياة، يا إلهي! أية حياة!

الفصل الثامن

صالة الدار الريفية — تلك الصالة الكبيرة المزينة بمرآة بمصباح ولوحات شخصية لجنرالات، ولسيدات، وأساقفة — راقدة في شبه ظل مرتعش. السيدة الكبيرة الكونتيسة غافية على الكنب. وفوق المائدة الصغيرة ذات القائمة الواحدة يظهر تأثير مشابه لعصا صاحب الوقف وشغل الإبرة (التريكو) الخاص بروساريتو، جسد من الظلال يهتز بين الستائر الثقيلة. وهنا كل شيء غارق في نوم ثقيل حتى إنه فجأة فتحت الكونتيسة عينيها وركزت ناظرها بفزع في باب الحديقة. وخيل إليها أنها سمعت صرخة في أحلامها، واحدة من تلك الصرخات الليلية، بنطق غير واضح المعالم وعلاوة على ذلك بشكل مخيف. وبرأس مطروحة إلى الوراء، وبنفس مفزوع، ومذهول تظهر للحظات قصيرة في الانبعاث... لا شيء! السكون عميق. فقط يثير الاضطراب في هدوء المكان النبض الوئيد والدقيق للساعة التي تلمع في العمق وبالكاد تبدو واضحة... والكونتيسة عادت لتنام.

فأخرج من حجره وعبر الصالة برشاقة وبحيوية وبشكل مجهد. ومصابيح المرآة سلطت عليه من فوقه، فبدت كحدقات وحوش مختبئة في الأركان المظلمة، وانعكاس ضوء

القمر نفذ إلى قلب الصالة. والصور الفورية من آلة تصوير على ألواح معدنية من طراز قديم تقذف عيناها بالشرر فوق ترابيزات الكونسول، المستندة إلى جرار ممثلة بالورود. وعلى فترات متقطعة، كانت تسمع الصوت الطافى الحزين لضفدع يرسل نقيقه فى الحديقة. إنه منتصف الليل، وضوء المصباح يخبو. استيقظت الكونتيسة، ورسمت علامة الصليب.

ومرة أخرى سمعت صرخة... لكنها هذه المرة شديدة الوضوح، شديدة التحديد، ولا شك فيها. تناولت عكازها، وبحركة استوت على الكنبه وأصغت، قط أسود، رفع جسمه بصعوبة على ظهر كرسى، وأخذ يراقب المشهد بعينين مضبئتين. وشعرت الكونتيسة بالقشعريرة من الخوف، ولكى تهرب من وطأة مشاعرها قامت وخرجت من الغرفة. والقط الأسود تبعها وهو يموء بشكل مثير للشفقة، ذيله كان غزير الشعر، وظهره كان مقوساً، وعيناها فوسفوريتان، وكل ما فيه يوحي بأنه قط مسحور. كان الممر مظلماً... وخبط العكاز يرن كما لو كان فى صحن كنيسة خاو... وهناك فى النهاية، باب موارب يتسلل منه شناع من الضوء...

والكونتيسة دى ثيلا وصلت وهى ترتجف.

الحجرة كانت خالية، تبدو مهجورة، ومن نافذة مفتوحة بها، والتي تقع على الحديقة، أمكنها أن ترى بشكل إجمالي خيالي مجموعتين من الأشجار تتقاطع جذوعها على صفحة السماء السوداء، الممزقة، ونسمات الليل ترعش الشموع في الشمعدانات الفضية، والتي تتساقط دموع بكائها بلا عزاء في الوردات الذهبية، تلك النافذة مفتوحة على الحديقة الغامضة المظلمة التي تملك أن تستحضر شيئاً من المشاعر، وتوعز بها. يبدو أن أحداً قد هرب منها.

توقفت الكونتيسة وقد شلها الرعب.

في عمق الحجرة، السرير الخشبي المقدس حيث كان ينام فراي ديجو دي قادش، منقوشة خطوطه الصارمة المتقشفة على طول ستائر من الدمقس القرمزي العتيق الذي يبدو محتفظاً بأثر من آثار الطقوس. أحياناً لطخة سوداء تجرى فوق الحائط، تأخذها من ظل طائر عملاق: تراها جاثمة على السقف وتتشوه في الزوايا، وتتجر فوق الأرض وتختبئ تحت الكراسي، وبلا توقع، تقع فريسة لدوار راقص على الحبل، ومرة أخرى تقفز على الحائط، وترمح فوقه مثل عنكبوت...

واعتقدت الكونتيسة أنها تموت.

وفى هذه الساعة، فى وسط هذا السكون، الحفيف الأكثر
خفوتاً زاد من أوهامها. قطعة أثاث تطقطق، دودة تأكل فى
الخشب، الريح التى تنسرب من خصائص النوافذ، كل شىء
امتلك بالنسبة لها نبرات صوت مأساوية أو مرعبة. منحنية فوق
عكازها، وكل عضو فى جسمها يرتجف، اقتربت من السرير،
أزاحت الستائر، ونظرت... روساريتو كانت هناك لا نفس فيها،
متخسبة، بيضاء! دمعتان تبللان خديها.

العينان بهما نظرة شاخصة ومدفونة، عينان ميتتان. ومن
صديريتها البيضاء جرى خيط من الدم!... الدبوس الذهبى الذى
كان من دقائق قبل الآن يثبت ضفيرة شعر الفتاة الصغيرة، كان
بطريقة وحشية مغروساً فى صدرها، فوق القلب. وشعرها
الأشقر منتشر على المخدة، مأساوية، مريم المجادلة...

حلم كوميدى

كهف فى الجبل، فوق مفترق طريقين تمر بينهما
الأحصنة، ورجال يمتطون أحصنة، وصلوا أفواجًا، وامرأة
عجوز ظهرت فى مدخل الكهف، شكلها برز من الظلمة على
خلفية محمرة فى العمق حيث النار المستعرة فى الموقد. هى
ساعة حلول الليل، وساعة تتخذ النسور عشها فى أرض الجبل
الصخرية. تعود لمهدا بطيران بطيء ويكف معه سماع
ضربات الأجنحة.

المرأة العجوز — أى مشقة مع انتظارى لكم، يا أولادى!
فمنذ الليلة الماضية وأنا أشعل النار الكافية لتستطيعوا أن تتدفأوا.
هل وصلتكم منهكين؟

والمرأة العجوز دخلت الكهف، والرجال ترجلوا من فوق
الأحصنة، بسحناتهم العابسة، وحدقاتهم تلمع فى بياض عيونهم
بشراسة غريبة. واحد منهم بقى مع الأحصنة لحراستها،
والآخرون، وخرج كل منهم على كتفه، فقد دخلوا إلى الكهف
وجلسوا حول النار يصطلون بها. كانوا اثنى عشر لصًا
وزعيمهم الكابتن.

المرأة العجوز — هل كان الحظ حليفكم يا أولادى؟

الكابتن — سترين الآن يا أمى سيلبيا! هيا يا شباب جمّعوا
الغنائم لكى يمكننا تقسيمها إلى أنصبة.

المرأة العجوز — لن تساوى الغنائم أبدًا طول غيابكم.

الكابتن — لم نطلب أقل مما نحصل عليه فى كل مرة يا
أمى سيلبيا.

والأم سيلبيا فرشت فرشة من القماش الجوخ حول الموقد،
وعيونهم أخذت تراقب بلؤم كيف أن أيدي هؤلاء الانثى عشر
رجلاً اختفت فى عمق الأخراج وتخرج الحلى الذهبية المتشابكة،
التي تومض فى ضوء السنة اللهب المرتعشة.

المرأة العجوز — أبدًا لم أر من قبل أحجارًا كريمة بمثل
هذه الوفرة!

الكابتن — ألم يبق شيء فى خرجك يا فيرّاجوت؟
فيرّاجوت — لا شيء يا كابتن.

الكابتن — وفى الأخراج التى لديك يا جالاعور؟
جالاعور — لا شيء!...

الكابتن — حسنًا... ليكن معلومًا لكم يا أولادى، أن كل
من يخدعنى ستكون حياته هى الثمن الذى سيدفعه. انتِ بالنور
هنا، يا أمى سيلبيا.

والأم سيلبيا أنزلت القنديل. وطلب الكابتن أخراجه التى تركها عند دخوله فوق مقعد لتكون موجودة قبالة النار. واللصوص اقتربوا. وفوق هذه المجموعة من الرعوس العابسة الفضولية ينعكس اللهب الدامى للنيران المشتعلة لجلب الدفء. وأخرج الكابتن من الأخراج منديلاً موشى بالذهب، وعندما بسطه أمكن رؤيته وقد استخدم ككفن ليد مبتورة. يد لامرأة بأصابع ممثلة بالخواتم، يد فى بياض زهرة.

المرأة العجوز — يا لها من خواتم! كل واحد يقدر بثروة. لا يوجد لا أغلى ولا أجمل، عليكم أن تعلموا ذلك يا أولاد...

الكابتن — جميلة أيضاً اليد، ولا بد أن تكون صاحبها أكثر جمالاً!

المرأة العجوز — ألم ترها؟

الكابتن — لا... اليد ظهرت خارجة من بين قضبان السور، وبترتها بأن ضربتها ضربة لفت حولها من سيفى المحذب. كانت قضبان السور مخفية خلف أشجار الياسمين، وبدون لمعان الخواتم كانت اليد تبدو زهرة أخرى. أوقفت ركض حصانى، ودون أن أوقفه جعلتها تسقط بين الزهور، مضرجة بالدم، ولم أكد أجد وقتاً لالتقاطها والهرب بها... آى، لو أمكننى أن أتخيل جمالاً مثل هذا!

ولبت الكابتن غارقاً فى التفكير: سحابة من الحزن كست وجهه، وفى العينين السوداوين الضيقتين اللتين تتأملان النار، ارتعشت خوفاً من اللون الذهبى للهب ومن الأحلام. وواحد من اللصوص وصل إلى اليد التى كانت مستلقية فوق فرشاة القماش، والمنديل الموشى بالذهب، وحاول خلع الخواتم منها، والتى بدت ترصع الأصابع المتيبسة. رفع الكابتن رأسه وصعقه بنظرة رهيبة:

الكابتن — دع ما ليس باستطاعتك أن تلمسه يا ابن الكلبة. دع هذه اليد التى فى ساعة نحس قطعها سيفى المحذب. هكذا كانت عيناي عمياوين عندما نظرت إليها. مسكينة أيتها اليد البيضاء التى فجأة أخذت تذبل مثل الزهور! أهب كل كنوزى من أجل أن أعيدها سليمة للذراع الذى قطعتها منه!...

المرأة العجوز — ولعلك تجد كنزاً أكبر!

الكابتن — ومن أجل أن أرى الوجه لتلك المرأة أهب حياتى يا أم سيليبيا، إنك خبيرة فى علم قراءة الكف ومعرفه أسرارها، قولى لى من هى.

تتهد الكابتن واللصوص ظلوا ساكنين فى ذهول مما يرونه، كما لو أن دمعتين تتحدران على الخدين المتوحشتين. وأخذت الأم سيليبيا بين يديها اللتين لساحرة، هذه اليد البيضاء،

وبلا جهد، خلعت منها الخواتم، ثم فركت راحة اليد المتيبسة كي
تنظفها من الدم وتستطيع أن تقرأ خطوطها. واللصوص هداؤا
وانتبهوا.

المرأة العجوز — منذ مولدها، وهذه اليد عثرت على
حظها في الحياة مقدماً، بنزع أوراق زهرة، ورقة ورقة وإلقائها
للريح، إنها الزهرة التي قالوا عنها زهرة السعد. إنها يد فتاة
عذراء مسحورة، وإنها عندما ينام القزم الذي هو سجانها تطل
خارج قضبان السور وتنادى على العابرين.

الكابتن — بأى رقة خفية مازالت تتاديني!...

المرأة العجوز — أعين البشر لا تستطيع أن تراها حتى
لو نظرت لها عيناك، لأن قدرة القزم توهم البعض بأن ما
يرونها حمامة بيضاء، وتوهم الآخرين بأنها زهرة بين أزهار
السور المكسو بالزهور.

الكابتن — ولماذا رأتها عيناى بدون ذلك التوهم؟

المرأة العجوز — لأنها وضعت الخواتم فى أصابعها
بكثرة حتى لا تتوهم أنها حمامة ولا زهرة. وقطعتها أنت، ولو
أنك لم تفعل ذلك بسيفك المحدث الذى دار حولها، كنت ستكون
عريساً للعذراء المسحورة، التى هى بنت ملك.

صمت الكابتن وهو يفكر . والأم سيلبيا، فى ضوء القنديل،
عدَّت، وقدرت ثمن الخواتم. أما فيرّاجوت، وجالاعور،
وفيرابراس واللصوص الآخرين فشرعوا فى تقسيم الغنائم.

فيرّاجوت — هات هذه الخواتم هنا، يا أمى سيلبيا.

جالاعور — دعها حتى تراها.

فيرابراس — خبطة حلوة خبطها الكابتن!

أرجيلو — ألا تكون هذه الخواتم عملاً من أعمال السحر،
والتي يمكن أن تختفى؟

سليمان — لو أن هذا يخيفك، أنا أشتري منك ما سيقع من
نصيبك.

بارباروخا — أنا أشتريه منك. يمكنك أن تغيره أو تلعب
به.

المرأة العجوز — إنها تبرق بنور وهاج، حتى إن يدي
المجعدتين تبدوان جميلتين بهم.

بعد هذه الكلمات، ساد صمت، وقد سمع صوت إلهامه،
فانتبهوا كلهم، ومازال الصمت مخيماً عندما ظهر فى مدخل
الكهف شبح، برداء صوفى خشن، هو رداء التوبة، ولحية
طويلة، دخل متكرراً ومنحنياً فوق عكاز طويل، وفى وسط

الكهف اعتدل وأنزل اللحية الوقورة، التي ألقى بها في الموقد
حيث ارتفع لسان من اللهب قصير وطار في الهواء.
واللصوص ضحكوا وتصايحوا بصيحة المسلمين في حروبهم
بجسارة، أما الكابتن فدار عليهم بنظرة من عينيه.

الأرميتانيو — خبر أحمله لكم حتى لا تقطب الجبين يا
كابتن.

الكابتن — قل ما هو بسرعة، وانصرف.

الأرميتانيو — قبل الفجر ستمر عن طريق الجبل قافلة من
التجار الأغنياء.

ابتهج اللصوص وعلى وجوههم ابتسامة الذئب التي تظهر
فيها الأسنان. فيرّاجوت سن خنجره على حجر الموقد، والمرأة
العجوز ألقت بحزمة حطب أخرى في النار.

الكابتن — هل هم كثيرون هؤلاء التجار؟

الأرميتانيو — إنهم أبناء وأحفاد اليبان الأحمر.

الكابتن — ومن أين سيملكون؟

الأرميتانيو — في أراضٍ بعيدة، ببضائع من الحرير
والديبا.

سكت الكابتن وظل يتأمل النار، ثم عاد غاطساً في ضباب حلمه. وفي الكهف دخل كلب بحذر، واحد من تلك الكلاب التي تتجول بالليل في ضوء القمر، تجرى في الطرق المنعزلة. اقترب من الحائط وبأذنيه المطأطئة اقتفى الأثر في الظلام. ومرة واحدة رفع رأسه وتشمم الهواء، ثم لمعت عيناه. إنه كلب أبيض وشبهي. سمع صرخة. هرب الكلب حاملاً بين أسنانه اليد المبتورة، زهرة من بياض ناصع وغامض، التي كانت مستلقية فوق بقعة الذهب. خرج اللصوص زمرة واحدة إلى مدخل الكهف. والكلب كان قد اختفى في الليل.

الكابتن — اتبعوه!

فيراجوت — يبدو أن الظلمة قد ابتلعتة.

سليمان — لقد دخل إلى الكهف دون أن يراه أحد.

جالاعور — إنه كلب مسحور.

بارباروخا — من حسن الحظ أنه أخذ اليد فقط، لأن الخواتم مازالت مصنونة إذ خلعتها الأم سيليبيا.

الكابتن — اتبعوه! نصف كنوزي سأعطيها لمن يعيد لي هذه اليد. اتبعوه! فيراجوت، جالاعور، سليمان اعملوا مسحاً للجبل دون أن تتركوا عشبة، بارباروخا، جايفيروس، سيفير، أنتم عليكم أن تنتشروا في كل الطرق. بسرعة بالأحصنة! نصف

كنوزى ملك لمن سيعيد لى هذه اليد. نصف كنوزى، وكل
الخواتم التى رأيتموها تبرق فى أصابعها المتبيسة. بسرعة،
بسرعة على الأحصنة! ألا تسمعون؟ من يعصى أوامرى؟
اضربوا فى شعاب الجبل واقطعوا الطرق جرياً، أو ستتدحرج
رءوسكم.

جماعة اللصوص بدت وهى لا تتحرك فى مفترق
الطرق، وفى العمق أكثر، بدت الأحصنة وعليها السروج وهى
تقضم وتلوك أعشاب الجبل الجافة، والقمر يضىء والمكان
الصخرى، الذى تضربه الرياح كلها. وسمع أن قافلة تعبر عن
بعد ببطء، ونعسانة، الأم سيليبيا من مدخل الكهف قالت تسمعهم
صوتها:

المرأة العجوز — يا أولادى، لا تغامروا فى الدنيا بلا
فائدة، لأنكم ستموتون وأنتم شيوخ على طول الطريق دون
العثور على يد الأميرة... القافلة مرت، والأحسن من يستفيد بما
نال من حظ.

الكابتن — اسكتى، أيتها العجوز الشريرة، وإذا لم تريدى
أن تسكتى، فسأمسر لسانك بخنجرى.

فيراجوت — أنا لن أسمح لك بذلك.

سليمان — ولا أنا.

بارباروخا — الأم سيلبيا تكلمت بالحق.

جالاءور — الكابتن صار مسحورًا بهذه اليد التي قطعها.

سيفير — عن نفسي فلا شيء في العالم يجعلني أضع
واحدًا من تلك الخواتم.

جايفيروس — أنا، لو أن أحدًا جار على نصيبي عند تقسيم
الغنائم، فمن هذه الساعة أتنازل عنه.

الكابتن — اخرسوا يا أولاد الكلبة. أنا سأذهب وحدي،
لأنني لست في حاجة لأحد منكم وعليكم أن تبقوا هنا في انتظار
حبل المشنقة.

وتقدم خطوة نحو الجماعة من أهله، وظل ينظر إليهم من
على بنظرة احتقار.

وانتظر اللصوص مخيفين خائفين وحانقين حريصين على
أن تظل أيديهم فوق خناجرهم، وسمع أكثر جلبة اقتراب القافلة
التي تعبر الجبل. والكابتن، بصوت هائل نادى على حصانه،
وركبه وابتعد به.

المرأة العجوز — انتظر إلى أن تسمع النصيحة!

جايفيروس — لا تتأدى عليه، لأنه لن يستمع إليك.
أرجيلاو — لن يعود مطلقًا.

فيراجوت — من هذه الساعة سأكون أنا الكابتن.

بارباروخا — أنا من سيكونه.

سليمان — انظر. إن كل واحد سيقول ذلك عن نفسه.

جالاعور — نعملها بالاقتراع.

سيفير — وما تظهره يقررونه.

فرشت الأم سيلبيا فوق الأرض بقجة الذهب التي كانت
كفناً لليد البيضاء، سجلوا نصيبه بلعبة النرد، بينما، وخلال
الطريق الذي أناره القمر، كان فارس يجرى فى البحث عن اليد
التي للأميرة كيميرا.

ميلون دى لا أرنويا

ذات ليلة، فى موسم قطاف العنب، جاءت بالقرب من بيتنا، شابة طويلة، ضامرة، داكنة السمرة، بشعر قاتم، وعينين محمرّتين بشدة، غائرتين فى استدارتى هالتي العينين، جاءت باكية وهى تتلهف:

— احمونى من ملك المسلمين الذى أخذنى غنيمة! إننى أسيرة لأسقريوطى!

وجلست فى ظل عربة تحلّت من نيرها وبدأت تتخلص من كل ما كان متعلقاً بها. بعد أن وصلت إلى الحوض حيث تشرب الماشية والأغنام، وغسلت جرحاً فى خدها. سيرينين دى بريثال، رجل عجوز يضرب بقدميه فى حوض عصر العنب، توقف ليزيل العرق بيده الحمراء من عصير العنب.

— ستكونين من أسرانا لو عملت فى خدمتنا، ارفعى دعوى فى المحكمة. ما الذى يمكننا أن نقدمه لك هنا. ستكونين من أسرانا.

شرحت له المرأة:

— امنع عني النار حتى لا تطالني! ألا يوجد فم مسيحي
يساعدني بكلمات طيبة تحررني من العدو.

وسألت امرأة عجوز:

— أنت لست من هذه البلدة؟

قالت المرأة الداكنة السمرة وهي تنتحب:

— أنا من على بعد أربعة أميال في صعيد سانتياجو. جئت
هذه البلدة لأجد عملاً بها، وبينما كنت أبحث عن سيد، وقعت من
صميم قلبي في أسر الشيطان. كان أحد السحرة الذين عملوا لي
عملاً من أعمال السحر في تقاحة من تفاح رينيتا. عشت في
الخطيئة مع شاب كان يشدني من صفائري. احتفظ بي أسيرة،
لدرجة أنني لم أعد أطيعه أبداً، والشيء الوحيد الذي أتمناه أن
أراه ميتاً. احتفظ بي أسيرة بعمل الشياطين.

النسوة والرجال العجائز رسموا علامة الصليب وهم
يتمتمون بإشفاق عليها، لكن الشباب كانوا يسهلون مثل تيوس
كثة اللحى، يتقافزون في الأحواض، وفوق العربات المحملة
بالعنب، حمراً، عراة، وأقوياء. صاح بيدرو الأرنيلو، من ناحية
كرنديس:

— ها ها يا للعجب! لا تجعله يلمسك ويدغدغك وسترين
كيف ستطيرين العدو!

رنت أصوات الضحكات الفرحة البدائية... الشبابات
ازدادت حرارتهم قليلاً، خفضن جباههن وبأسنانهن فكن عقدة
مناديلهن. أما الشباب فمن فوق العربات استعادوا القفزات
والاستمرار في صبر، في دوس العنب بأقدامهم. لكن فجأة
توقف الاحتفال. جدتي أنهته بأن أطلقت على الفناء، تجرُّ رجلها
المصابة بالنقرس مستندة إلى ذراع ميكائيل لاجالانا. إنها دونيا
دولوريس ساكو، جدتي لأمي، سيدة خيرة معتزة بنفسها، طويلة،
جافة، تنتمي لزمان قديم. الشابة داكنة السمرة عادت إلى الفناء
بذراعين مرفوعين عاليًا:

— احمنى يا سيدتى النبيلة!

وجدتى ارتجفت ذقنها بكلام سيادة مطلقة وهى تتساءل:

— أى حماية تطلبينها أيتها الشابة؟

— من ملك المسلمين! لقد جئت هاربة من كهف الجبل
حيث أخذنى غنيمة.

وميكائيل لاجالانا همست فى أذن جدتى:

— يبدو أنها محظية يا ميسيا دولوريس!

وجدتى رفعت نظارتها الصدفية وعادت للسؤال وهى
تنظر إلى الشابة:

— وما اسم ملك المسلمين الذى تعنيه؟

— ملك المسلمين هكذا، يا سيدتى!

— تكلمى بصوت لا يسمع.

تأوهت الشابة داكنة السمرة:

— لقد احتفظ بى أسيرة بعمل من أعمال الشياطين.

وتدخل العجوز سيرينين دى بريثال معترضًا:

— السيدة تريد أن تعرف ما هو اسم الشاب الذى يحتفظ بك تحت سيطرته وأين موطنه.

الشابة الداكنة السمرة رفعت ذراعيها وهى ترتجف بصوت أشبه بالخوار:

— ميلون دى لا أرنويا، إنه مارد، ومطارد من العدالة، ويعيش من طلاسة الحيطان بالجبل، ويسرق المزروعات، والماشية والأغنام.

فى بيت جدتى، عندما يتجمع الخدم عند حلول المساء، لتفريط كيزان الذرة وفصل الحب عن القوالح، دائمًا تأتى سيرة ميلون دى أرنويا، بعض المرات رآه الناس فى سوق ماء، ومرات أخرى رأوه فى الطريق، وأخرى مثل الثعلب يدور حول القرية. وسيرينين دى بريثال، الذى عنده قطيع من الغنم، اعتاد

أن يحكى كيف سرق الحملان فى أدغال بارباننتا. اسم هذا الصعلوك المطارد من العدالة، ألقى بظله على ملامح الجميع. وجدتى فقط هى التى ظلت محتفظة بابتسامتها المتعالية:

— إنه ظالم، إذا جاء إليك لن أعترض عليك. ابقى لتستقبله فى بيتى، أيتها الشابة!

تعالى الهمس بامتداح جدتى. أما الشابة الداكنة السمرة فقدمت لها الشكر وهى تشعر بالخزى، ومضت لتجلس فى مكان قريب بالفناء ورأسها مغطاة. وعلى البعد ترن أصوات قطف العنب. صف طويل من العربات يأتى من الطريق العمومى. شابات حافيات وهائجات تتقدمن، ويبعث فيهن المرح والحيوية فدان الزرع بثيرانه الذهبية، وأخريات تأتين على الأحواض وأفواههن ممتلئة بالأغنيات والضحكات، وقد صبغتها رغوة العنب. والعربات تدخل ببطء، فى الحوش، وخلف العربة الأخيرة يظهر شحاذ كل ما يرتديه خرق بالية، أشعر وقوى. الشابة الداكنة السمرة، التى كانت رأسها مغطاة، نهضت كما لو أنها عرافة وقد ارتعدت وتحول وجهها إلى الزرقة المائلة للسواد وغشيته الكآبة:

— فاسد، بعمل السحرة تأتى إلى هذا الباب! لا تضحك، فم الشياطين!

لم يتحرك الرجل من على عتبة الباب، واسترق النظر فيما حوله وعاد بنظره إلى الأرض وتتهدد:

— عطش، يطلب الماء من أجل رجل فقير، ثم يمضى فى سبيله.

والشابة الداكنة السمرة صرخت:

— هذا الذى يتكلم إليكم هو ميلون دى لا أرنويا ساقه إلى هنا عطشه. كسول مثل كلب مسعور، ميلون دى لا أرنويا!

وقد سكنت الأصوات كلها. النسوة تطلعن إلى الشحاذ ممثلاث بحب استطلاع مرعب والرجال بارتياح. البعض أمسك بالمناخس التى تحت الثيران. وفى أعلى الفناء، جدتى، تركت الذراع التى كانت تستند إليها. صارت منتصبه القامة، صلبة، قوية بذقنها التى ترتعش دائماً، أسمعتهم صوته الذى سيطر بشكل مطلق على الجميع:

— أسعفوا هذا الرجل، وعليه أن ينصرف.

ميلون دى أرنويا، بالكاد رفع جبهته العنيدة:

— ميسيا دولوريس، هذه المرأة هى من أهيم بها. لا شىء سيئ يمكن أن يحكى عنى. تكلمى بالحقيقة عن كل شىء، أيتها الغجرية.

الشابة الداكنة السمرة لوت ذراعيها:

— سرعان ما ستتكر! فاتن! سرعان ما ستتكر!

العينان الغائرتان والمطفأتان لجدتي استعادتا الحيوية
بشعاع من الحمى:

— أيها الشبان، ارموا هذا الظالم من بابي.

— يميحيو دي بيالو وبيدرو الأرنيلتو اتجهوا إلى سياج
القضبان الحديدية للحوش، لكن الآخر واصل كلامه المخيف
والمبكي:

— اطمئنوا لأننى سأنصرف بالفعل! أخوة أكثر أراها بين
الذئاب من التى أراها بين البشر.

وابتعد، والمرأة الداكنة السمرة انهارت ساقطة على
الأرض، واعوج فمها وتساقطت منه رغبة، والذين يعملون فى
موسم قطف العنب أحاطوا بها، وأحاطوا بها حتى لا تنزع عنها
ثيابها. وسيرينين دي بريثال حمل ماءً من البئر. وميكائيل
لجالانا نزلت بمسبحة، وفى هذه اللحظة سمعوا أصواتاً هائلة
تأتى من الطريق العمومى. ميلون دي لا أرنويا. كانت أصواتاً
مثل صرخات أحد وحوش الجبال الضارية، والشابة الداكنة
السمرة أول ما سمعته قامت من وسط حلقة النسوة قبل أن
يمسوها بالمسبحة المباركة، ترغى وتزبد، مولولة، عارضة من

بين خرق الجلباب اللحم المتشنج، وهى ترتطم بين عربات
قطف العنب واختفت. تقاطروا كلهم إلى السياج ورأوها وهى
تمضى إلى جانب ميلون دى لا أرنويا. بعد ذلك حكوا أن اللص
قاطع الطريق، كان يمسكها من ضفائر شعرها ويحملها وهو
يجرها إلى كهفه بالجبل. وبعضهم قالوا إنهم أحسوا فى الهواء
بأجنحة الشياطين. أنا فقط، رأيت، عندما يحل الليل ويظهر
القمر، بومة فوق شجرة سرو.

مثال

كان أمارو راهبًا صالحًا، وكان في ذلك الزمن يعيش في الجبل حياة التائبين، الذين يرتدون ثوب التوبة في المواكب الدينية، وعصر ذات يوم، وقعت عيناه وهو يصلى على عابر من بعيد في الطريق الرئيسي، وكان رجلاً يغطي التراب كيانه كله. والراهب الصالح، وبما أنه كان عجوزًا، كان نظره ضعيفًا ولم يستطع أن يتعرف عليه، لكن قلبه أرشده إلى من يكون هذا العابر الذى يخرج للعالم ملتفًا بهالات ذهبية من الشمس الغاربة. فنهض من الأرض جاريًا نحوه متوسلاً إليه:

— يا سيدى، دعه يلحق بك، خاطئ حزين!

والعابر، الذى صار الآن بعيدًا، سمع هذه النداءات وتوقف منتظرًا. وصل أمارو متقطع الأنفاس، وعندما وصل، جثا على ركبتيه وقبّل طرف ردائه، لأن قلبه كان قد قال له إن هذا العابر هو سيدنا عيسى المسيح.

— يا سيد، دعنى أمضِ فى صحبتك!

والسيد عيسى المسيح ابتسم:

— يا أمارو، مرة واحدة أتيت إلى وتخلّيت عني.

الراهب الصالح أحس بتأنيب الضمير، أحنى جبهته:

— يا سيد، اغفر لى!

السيد عيسى المسيح رفع يده اليمنى المتقوبة بكبش قرنفل
ورسم عليه علامة الصليب:

— مغفورة لك خطاياك. اتبعنى.

وواصل سيره فى الطريق الذى بدا يطول حتى المكان
الذى تغرب فيه الشمس، وفى اللحظة نفسها شعر بأن قواه قد
خارت، هذا الراهب الصالح:

— هل هو طريق طويل جدًا هذا الذى تسير فيه يا سيد؟

— الطريق الذى فيه تسير، هو شديد القرب، شديد
البعد....

— لا أفهم، يا سيد!

— أولم أقل لك إن الغايات كلها، إما أنها بعيدة هناك حيث
لن تبلغها أبدًا وإما أنها فى القلب؟

أطلق أمارو تنهيدة طويلة. كان قد قضى الليلة فى
الصلاة، وخاف من أن تخونه قواه خلال الرحلة، التى بدأ قلبه
يشعر بما سيحدث من أنها طويلة وشاقة. والطريق فى كل لحظة
يضيق أكثر فأكثر، ولا يستطيعان أن يمضيا فيه متجاورين،

الراهب الصالح مضى فى إثر السيد. كان الوقت صيفاً، والطيور عادت إلى أعشاشها، تغرد بين الأغصان، والرعاة نزلوا من الجبل يسوقون أمامهم قطع الأغنام.

أمارو، مثلما كان عجوزاً وقليل الصبر لم يتوانَ عن التآلم من التراب، ومن التعب، ومن العطش... والسيد عيسى المسيح سمعه بهذه الابتسامة التى تظهر أن السماء وارتبت أبوابها للخطاة:

— أمارو، من يأتِ معي عليه أن يتحمل ثقل صليبي.

والراهب الصالح اعتذر وهو يشكو:

— يا سيد، أنت ترانى عجوزاً جداً، ومنهمكاً مثلما أنا، وعلى أن أشكو لك هكذا.

السيد عيسى المسيح أراه قدميه الربانيتين، اللتين شققتهما أشواك الطريق وجعلتهما تتزفان دماً فى صندلهما، ويواصل سيره إلى الأمام، أطلق أمارو تنهيدة من التعب:

— يا سيد، أنا لن أستطيع السير أكثر من ذلك.

وناظرًا إلى فتى قادم من وسط دغل حيث تنمو أشجار الرّثم. جلس وانتظره. السيد عيسى المسيح توقف أيضاً:

— يا أمارو، قليلاً من العزم وسنصل إلى القرية.

— يا سيد، دعنى هنا! انظر إلى أننى أتممت مائة عام وأننى لا أستطيع السير.

وهذا الفتى الذى أتى من هناك لا بد قريب من الحظيرة، وسألتهم منه أن يتركنى أقضى الليلة فيها. أنا ليس لى ما أفعله فى القرية.

السيد عيسى المسيح نظر إليه بصرامة بالغة:

— يا أمارو، فى القرية امرأة مسها الشيطان تنتظر الشفاء منه منذ سنوات.

صمت. وفى سكون الليل الذى حل، سمعا عدة صرخات تثير الفرع. وأمارو، مأخوذاً، نهض من فوق الحجر حيث كان يستريح فوقه، مواصلاً سيره خلف السيد عيسى المسيح. وقبل الوصول إلى القرية برز القمر غامراً باللون الفضى قمم بعض أشجار السرو حيث يغرد مختلفاً ذلك البلبل السماوى حتى يسمع راهب صالح آخر مفتوناً لثلاثمائة سنة. وعلى البعد ترتعش بالكاد المياه الشفافة لأحد الأنهار، والتي تبدو وهى تحمل فى عمقها النجوم السماوية النائمة. وتتهد أمارو:

— يا سيد، أعطنى الإنن بأن أستريح هنا فى هذا البراح.

ومرة أخرى رد عليه بصرامة السيد عيسى المسيح:

— احسب عدد الأيام التى تحملها المرأة التى تصرخ فى القرية.

بهذه الكلمات توقف البلب، عن التغريد، وفى عصفه هواء ارتفع فيها فجأة، وعبر، صوت صرخات المرأة التى مسها الشيطان، ونباح الكلاب الساحرة فى الأجران.

كان الليل قد أطبق عليهما والخفافيش طارت فوق الطريق، أحياناً فى ضوء القمر، وأحياناً أخرى فى الظلام بين فروع الأشجار. ومر وقت سارا فيه وهما صامتتان. ويصلان إلى القرية فى الوقت الذى بدأت فيه الأجراس تدق من نفسها. وكان هذا هو الإعلان عن وصول السيد عيسى المسيح، الغيوم التى غطت القمر تلاشت، والأشعة الفضية تخرق من خلال فروق الأشجار، مضيئة الطريق، والطيور التى كانت نائمة فى الأعشاش صحت وهى تغرد، وفى التراب، تحت الصندل السماوى، تتفتح الورود والزنايق، والهواء كله معبأ بشذاها. سارا خطوات قليلة جداً وعلى جانب من الطريق عثرا على المرأة التى مسها الشيطان مرتمية على الأرض. السيد عيسى المسيح توقف والنور من عينيه سقط عليها كرحمة من معجزة فوق هذه التى تمرغت فى التراب وبصقت على أرض الطريق، مد لها يديه المتقويتين، وقال لها:

— انهضى، يا امرأة، وعودى إلى بيتك.

نهضت المرأة وهى تولول، وبأصابعها تعبت فى شعرها،
وجرت إلى القرية. وهما ينظران إليها تختفى على طول
الطريق، انخرط فى البكاء الراهب الصالح:

— يا سيد، لماذا لم تردّ لها هنا، فى هذا المكان نفسه،
صحتها؟ ولماذا تذهب بعيدًا أكثر؟

— يا أمارو، إن المعجزة تتم أيضًا بين الناس الذين لا
يؤمنون والذين فى هذا المتسع تركوها وتخلوا عنها. اتبعنى.

— يا سيد، أنا أتعبك معى! لماذا لا تعمل مع آخر معجزة
أن تجعل ساقى الهرمين يتركهما الإحساس بالتعب؟
للحظة ظل السيد حزينًا وهو مستغرق فى التفكير، بعد
ذلك غمغم:

— ليكن!... فلتشف، ولتستعد قواك.

والراهب الصالح، الذى كان يمشى محنيًا منذ سنين
طويلة، اعتدل قوامه وابتهج، وتخلص من كل تعب:

— شكرًا يا سيد!

وتناول طرف الرداء وقبله، وإذ إنه عند انحنائه رأى
القدمين الإلهيتين، ينزفان دمًا على التراب الذى تدوسان عليه،
همس فى خجل وبحنان:

— يا سيد، دع جراحك تتوقف عن النزف!

والسيد عيسى المسيح ابتسم له:

— لا أستطيع ذلك، يا أمارو، لا بد أن ألقن الناس أن الألم
هو شريعتي.

بعد هذه الكلمات، ركع فى جانب من الطريق وبقي يصلى
بينما ابتعد الراهب الصالح.

أما المرأة التى مسحها الشيطان، والمشتبكة أصابعها فى
شعرها، فقد جرت نحوه. إنها امرأة ترتدى أسمالاً بالية، بنهدين
مخملين ومتدليين. وعلى ضفة النهر، الذى بدا من الفضة تحت
ضوء القمر، توقفت تنهج مبهورة الأنفاس، تركت نفسها لتقع
فوق العشب وتبدأ فى التمرغ والبكاء. والراهب الصالح لم
يتأخر فى أن يراها من ناحيته، وكما لو أنه أحس بالحيوية
والكرم لشاب حاول أن يمسك بها لكن ما كادت يداها تلمسان هذا
الجسد من خاطئ لخاطئة حتى أحس باضطراب هائل. نظر إلى
المرأة التى مسحها الشيطان، ورآها تحت ضوء القمر، جميلة
كأميرة، وترتدى ثياباً حريرية شرقية، والأيدى الفاسقة التى

مزقتها لتعثر على الزهرتين البيضاءوين لنهديها. انتاب أمارو
الخوف، عاد ليحس بنيران الشباب في دمه مسات من الجنون.
وبكى متذكراً سلام الطريق القويم، تعب الصالحين من الذين
يمشون في العالم مع السيد المسيح، الروح عندئذ تبكى حزينة،
تحس بأن الجسد يحترق/ مشتعل. المرأة صارت ممزقة الغلالة
بالكامل وظهرت عارية. وأمارو اقترب خائر القوى، نظر
بضيق فيما حوله، ورأى فقط في براح السهل الصحراوي
جمرات موقدة متروكة من الرعاة، عندئذ تذكر كلمات السيد:
الألم هو شريعتي!

وانتزع نفسه متجهاً للموقد، وقوى نفسه ودس يده في
الجمرات، بينما باليد الأخرى رسم علامة الصليب، المرأة التي
مسها الشيطان اختفت. شقشق نور فجر اليوم، والراهب الصالح
رفع اليد من الجمرات، وفي راحة يده رأى وردة وهي تتفتح،
وإلى جانبه السيد المسيح.

ليلة عيد الميلاد

كان ذلك في جبل جليقية. كنت أدرس في ذلك الحين قواعد اللغة اللاتينية مع السيد أرثيريستي دي سينجوس، وكنت أمارس حياة إمارة الجسد، وهي لإمارة الشهوات في بيت رئيس الكنيسة. وحتى الآن ما زلت أرى نفسي في فتحة نافذة، أنتحب وأتهد. نزلت دموعي في صمت فوق كتاب القواعد لنبريخا، فتحت الجزء العلوي من النافذة. كان يوم ليلة عيد الميلاد، والسيد أرثيريستي كان قد عاقبني بالأأأأأول العشاء حتى أعرف كيف أنجح في تصريف ذلك الفعل الفظيع:

"Fero, Fers, Ferre, Tule, LaTum" —

وأنا، كنت قد فقدت الأمل تماماً في أن أنجح في تصريفه،
وكنت قد جهزت نفسي للصيام مثل ناسك صالح. انقطع تطلعي
إلى البستان، حيث غرد طائر شحور، والذي كان يجتاز
بقفزاته مسافات بين فروع شجرة جوز تجاوز عمرها مائة سنة.
والخيوم، ثقيلة ورصاصية، راحت تتجمع فوق سييرٍ أدي
سلتيجوس في أفق في الماء، والرعاة، أطلقوا صيحاتهم
لقطعانهم، متعجلين النزول على الطرق ملتفين بأغطيّتهم من
التيل. وقوس قزح غطي البستان، وأشجار الجوز القاتمة وأعواد

الريحان الخضراء المبتلة بدت ترتعش تحت شعاع من نور برتقالي. وعند حلول الليل، اجتاز السيد أرثيريستي البستان: يسير محنيًا تحت شمسية زرقاء واسعة، انعطف عند السياج وجاء إليّ في النافذة ونادى عليّ بإشارة من يده. نزلت وأنا أرتجف قال لي:

— هل تعلمت ذلك؟

— لا، يا سيدي.

— لماذا؟

— لأنه بالغ الصعوبة.

ابتسم السيد أرثيريستي بقلبه الطيب:

— حسنًا: غدًا ستتعلمه، والآن تعال معي إلى الكنيسة.

وأخذني معه ممسكًا بيدي حتى يحميني بالمظلة، إذ إنها بدأت تمطر مطرًا خفيفًا، وأخذنا نتقدم في طريقنا. كانت الكنيسة قريبة، ولها باب مسطح على الطراز الروماني، وكما قال السيد أرثيريستي إن التي أسستها هي الملكة دونيا أورّاكا. دخلنا، وأنا بقيت وحيدًا في مقصورة الكهنة، والسيد أرثيريستي مضى إلى غرفة المقدسات بملابس الكهنة وهو يتكلم مع خادم القداس من الفتيان يوصيه بأن يجهز كل شيء من أجل قداس ليلة عيد

لميلاد. بعد ذلك بقليل رجعنا وخرجنا. كان المطر قد توقف بالفعل، والبزوغ الشاحب للقمر بدأ ينير السماء الشاتية الحزينة. كان الطريق مظلمًا، كان طريقًا للأحصنة والبغال والحمير، طريقًا حجريًا، وبه برك كبيرة على طول الطريق، وقابلنا شابًا قرويًا توقف ليشرب بهدوء في الحقل متعبًا من ثيرانه. والرعاة العائدون من الجبل يسوقون القطعان أمامهم، ويوقفونها في المنعطفات، ويحثونها على أن تقف على جانب من الطريق حتى يتيحوا لنا أن نمرّ وكلهم حيونا كمسيحيين:

— حياكم الله.

— حياكم الله.

— امض في سعادة يا سيد أرثيبريستي أنت وصاحبك.

— آمين!

وعندما وصلنا إلى بيت رئيس الكنيسة، كان الليل قد أطبق علينا. ميكائيل بنت أخت السيد أرثيبريستي، نشطت لتجهز العشاء، ونحن جلسنا في المطبخ لنصطلي بالنار. ونظرت لى ميكائيل وهي تبتسم:

— اليوم ليس فيه مذاكرة، حقيقى؟

— اليوم، لا.

— أنت لا تحب اللاتينى، أتتكر ذلك؟

— هذا حقيقى.

وقاطعنا السيد أرثيبريستى وبشكل صارم:

— ألا تعرفان أن اللاتينية هى لغة الكنيسة...؟

وعندما بلغ ريقه السيد أرثيبريستى ليؤسس بحديث طويل
مزدهم بالمعرفة الدينية، علت تحت النافذة، أصوات أصداف
ودفوف مرحة. وصوت غنى فى ظلمات الليل:

نحن جئنا إلى هنا،

وإلى هنا وصلنا،

ولو سمحتم لنا،

سنغنى لكم هنا!

السيد أرثيبريستى أفسح الطريق لهم وفتح الباب بنفسه،
وحلقة من الشبان اقتحمت المطبخ الذى يكون مفتوحًا دائمًا
للضيوف. كانوا قد أتوا من قرية بعيدة؛ والذين كانت معهم
الدفوف شرعوا فى الغناء:

امشوا ببطء

امشوا بخفة

حتى لا نوقظ

طفلنا

طفلنا

يسوعنا

الذى ينام فى تبين المذود

دون مهد ودون نور

سكتوا للحظة. وخلال العزف بين الأصدا ف والدفوف
عاودوا الغناء:

نعم لن نخرج لأن عندنا

هذا الوجه القروى

سوف نبوسه أربع بوسات

هذا الوجه التفاحى

هيا بنا من هنا للقرية

والآن قد قطعنا الطريق مشيًا

وها هو يسوع نائم

ويمكننا أن نوقظه

وبعد أن انتهوا من الغناء، شربوا من ذلك النبيذ الحامى،
المنعش الصحى، الذى جنى محصوله السيد أرثيريستي،
وممثلين بالسرور والدم الحار خرجوا يصدرون أصوات القواقع
والدفوف. ولم نزل نسمع طرقعة قباقيبهم على سلاالم الفناء
عندما استهل أحدهم بأغنية:

هذا بيت وهو من الحجر

والعروس قامت فجأة

لكى يناما معًا

الأسقف وبنت أخته

وعندما سمع الكوبليه قطب السيد أرثيريستي جبينه،
وميكائيلًا قامت ثائرة، ورفعت القدر حيث يغلى التفاح المحفوظ
التقليدى، وجرت إلى النافذة تطلق صيحاتها:

— كلام قبيح!... تلميحات قبيحة! ومثلكم ستخرج هكذا
على الطريق ذئاب مسعورة!

والسيد أرثيريستي، دون أن ينبس ببنت شفة، مضى
يقطع/ يوخز السيجار بظفره، ويفرك النشوق/ السعوط بين كفيه.
وبعد أن انتهى وصل إلى الفرن وأخذ شعلة من النار التى أشعل

بها القنديل... عندئذٍ حدقت في عينيه المتجهمتين تحت حاجبيه
الشائبين الناميين. ارتعشت. والسيد أرثيристى قال لى:

— ماذا تفعل؟ امش وهات كتاب الـ نيبريخا.

خرجت وأنا أتتهد. وهكذا تمت ليلة عيد الميلاد فى بيت

السيد أرثيристى دى سينجوس. Q. E. S. G. H

صلاة

كانت صديقة ميتة هي الآن، هي التي بعناية محبة
جمعت هذه القصص، التي كتبت كيفما اتفق وفي
أماكن عديدة، لكي تموت منسية. وعندما في يوم
ما سلمتها لي بعد سنوات عديدة، أعتقد
أننى وجدت فيها عطر يديها، مسكينة
الأيدى الباردة، يا رب تقدر
ترجع الآن لتعطر هذه
الصفحات!

المؤلف فى سطور

رامون ماريا دل بايى إنكلان.

- ولد الكاتب الإسبانى رامون دل بايى إنكلان فى ٢٨ أكتوبر ١٨٦٦م فى قرية بيا نوبيا دى أروسا بإقليم جليقية شمال غرب إسبانيا، وتوفى فى السبعين من عمره يناير ١٩٣٦م بعد صراع مع المرض بمدينة سانتيا جودى كومبوستلا.

- اهتم منذ بداية شبابه بالاطلاع على أوجه الثقافة المختلفة من مسرح وأدب وفن تشكىلى، وسافر إلى المكسيك وخاض تجربة الكتابة للصحف بها، وتعرف إلى الواقع المكسيكى من خلال الجالية الإسبانية فيه، ثم كوبا، وبعد عام عاد ليعيش فى سانتيياجو ويصدر أول كتاب له "نسائيات"، انتقل بعده إلى مدريد ليستقر بها، وترجم أعمالاً عن الفرنسية، والإيطالية، والبرتغالية، ثم شكّل مع مجموعة من كبار المبدعين بعد هزيمة إسبانيا وخسارتها لآخر مستعمراتها فى أمريكا اللاتينية جيل ٩٨، مع بميل دى أونامونو، وبيوباروخا، وأنطونيو ماتشادو، وأثورين.

المترجم فى سطور

محمد إبراهيم مبروك

- ولد فى أول يناير عام ١٩٤٣م، فى قرية طملاى مركز
منوف/ المنوفية/ مصر.

- ليسانس آداب / قسم التاريخ / آداب الإسكندرية.

- احتفى به يحيى حقى ونشر له القصة القصيرة التى
اشتهر بها: "نزف صوت صمت نصف طائر" بمجلة المجلة
المصرية فى أكتوبر ١٩٦٦م.

- انخرط فى الحياة الثقافية منذ الستينيات، فشارك فى
هيئة تحرير "جاليرى ٦٨" وشارك فى تأسيس جمعية كتاب الغد
١٩٧٢م، وشارك فى إصدار كراسة النديم الثقافية فى
الإسكندرية فى الثمانينيات.

- بعد نشر أعماله القصصية فى مجلات: "المجلة"
و"جاليرى ٦٨"، و"الفكر المعاصر"، و"أدب الغد"، و"مواقف" التى
كان يصدرها أدونيس، و"الكرمل" التى كان يرأسها محمود
درويش، أصدر أول مجموعة قصصية له، وهى: "عطشى لماء
البحر" عام ١٩٨٤م (نفدت) والطبعة الثانية ١٩٩٦م (نفدت).

- ما إن قرأ مبروك قصة ليس لدى الكولونيل من يكاآبه حتى أصبح مسحورًا بأدب أمريكا اللاتينية، فدرس اللغة الإسبانية وترجم منها قصصًا لكل من: بورخيس، لوجونيس، إيزابيل الليندي، خيراردو ماريا، إيبار جنجوتيا، أرتورو أوسلا بيتري، وآخرين، وكلها صدرت فى كتاب "رقص الطبول"، سلسلة كتاب اليوم عدد نوفمبر ٢٠٠٧م، وطبعة أخرى صدرت عن سلسلة آفاق عالمية عن هيئة الثقافة الجماهيرية عام ٢٠٠٩م، وقبله كتاب "وسم السيف" ١٩٩٩م، عن المشروع القومى للترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة بمصر.

- كما صدرت ترجمته لمجموعة الكاتبة المكسيكية الكبيرة "أمارو دابيل" هذه الأيام عن سلسلة "الجوائز" بالهيئة المصرية العامة للكتاب، بعنوان: "حين تقطعت الأوصال" وهى أول مجموعة تصدر لها بالعربية.

- كما اهتم بترجمة قصص وحكايات للأطفال من أمريكا اللاتينية وإسبانيا والبرتغال نشرت معظمها فى مجلة "العربى الصغير" الكويتية، ومجلة "قطر الندى" المصرية، وجريدة "العربى" القاهرة.

التصحيح اللغوى: حامد إبراهيم

الإشراف الفنى: حسن كامل

إعصار إبداعات تتفجر بطاقة مبهرة تستعصى على النكوص أو
الأسر في الأشكال الموروثة، فنراه يهب مجتاحا الطرق
المطروقة، والحدود السابقة عليه ليمحوها، شاقا لنفسه طرقا
جديدة مغايرة - سميت فيما بعد باسمه - خالقا لغته،
وأساليبه، ورؤاه المتألقة دوما التي حملتها لنا موهبة عظيمة،
خلقت مكانها ومكانتها السابقة في القلب الحي لتاريخ بلاده،
وتاريخ العالم، وعن حديقة موحشه يقول "بايى إنكلان":

كان عند جدتى بتول طاعنة في السن تسمى ميكائلا لاجالانا،
ماتت وكنت مازلت طفلاً: أتذكر كيف كانت تقضى الساعات
وهي تغزل في فتحة إحدى النوافذ، وكيف أنها كانت تعرف
قصصا كثيرة عن قديسين، ونفوس معذبة، وشياطين، ولصوص.
الآن أنا سأحكي تلك القصص التي كانت تحكيها لى.
كانت أصابعها المليئة بالتجاعيد تدير المغزل. تلك الح
من شخص غامض وساذج ومأساوى، كانت تفرعنى فى
خلال سنوات طفولتى ولذلك لم يدركها النسيان، ولا ت
وقت لآخر تلح على ذاكرتى، كما لو أن ريحا صامتة وبار
فوقها، لها نفس الحفيف لأوراق شجر جافة وساقطة. ال
الذى لحديقة عتيقة مهجورة! حديقة موحشة.